توما هوك

صالح جبار خلفاوي

الكتاب : توما هوك (رواية)

المؤلف : صالح جبار خلفاوي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٠٨١٣

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 153 - 6

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى ـ المقطم ـ القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



توما هوك

رواية

صالح جبار خلفاوي

عانيتُ الكثير.. أقبل العيد، وأفكاري تنضح من ثقب ذاكرتي المعطوبة، أيقنتُ أنَّ اللَّيلة ليستْ مثل باقي اللَّيالي؛ لأنَّ الإحساس داخلي ينجب قلقًا مبكرًا.

حينما يصل عمري الأربعين، أبدأ بممارسة حياتي بنمطٍ هشٍ يخشى الانحدار، وتصبح الزغاريد نوعًا من الإسراف المخجل، لكنها وحدها مَنْ أسرتني بقوامٍ يحرِّك ذرات السكون داخلي مثل زوبعة لا تنتهي.

بقيتُ مشتتًا بين مناسبة العيد، وطغيان هاجسها المنثال أمامي مثل صرخة أُطلقها في البراري بلا رجع صدى، لكنها أثمرتْ بوحًا يتمرأ بلا ندم، يكشف عن ألمٍ في صدري أحسبه الحب.

تدفعني المقاهي بنوبات الذعر حتى أنسى الخوف، معتمة دوائر ضعفي، هزال بدني يفضح اضطرابي لكنها اكتشافي الجديد، خرجت من برعم ليلي نسغًا يشع لتزيح أدماني السيئ لخزينٍ موجع، يتكرر تلقائيًا لأستسلم لتوترٍ يرتجف تحت وابل ثقتي، أحببتُ ممارسة ملاحقتها في هذا العمر الناضج، أراها تسير بتؤدة ألحقها، والارتجاف يغزو أعضائي، ومهام الحب تنتشر مثل رائحة عطر تشدني.

استدارتْ، لمحتُ عينيها وهج يبرق، ابتهجتْ حواسي، اقتربتُ بارتباكٍ، سمعتُ صوتها يأتيني من سديمٍ بعيدٍ يصفع ذهولي:
ـ لماذا تلاحقني؟

تكتفي حواسي بدحرجة مشاعر خرقاء، ترسم وشمًا يُطرِّز لهفة

فاضتْ في ذروة انفعالي، لم أدرِ كم بقيتُ أسير حوارها المتدفق.

يتلاطم داخلي هدير صاخب، لا يعي سوى صورة وجهها المحفورة في ينابيع وحدتي.

برزتْ نداءات ليلة العيد؛ لتضفي لطعم المساء نكهة الفرح حين يعتصر اللقاء تحت ظل الخلوة لموعد حان وقته في الحدائق المترامية أسفل أضواء المصابيح، واللمسات الخجولة لأصابعي المتحجرة على لفافة التبغ.

تتمطى ألسنة اللهب المحموم على خفقان صدري، يعتصر رحيق زهو، ينكفئ على عشر سنين مرَّتْ بلا عشقٍ، لكنها تمرُّ الآن عبر خلايا مسامي النابتة تحت شجرة اليوكالبتوس الهرِّمة.

أستنشق عطر إبطيها؛ ليفتح شهية الوجع، أُفكّك قوانين اللُّعبة، أمضي معها بعيدًا للولوج في حلمٍ يأبى أنْ يستفيق، وَلَهٌ يتلمس الرغبة، أُغمض عيني، تشتعل الألوان في الأرجاء، يكون للوصل طعم آخر لا يكتفي بالنشوة.

الحب عندنا إرثٌ أكتشفه الآن، يعطيني حقائقَ وأفكارًا هجرتها الرمال، واستوطنتُ معالم مقلة حبيبتي، ووجهها العالق في سري الدفين، نلتقي في غصنٍ لفَّ خجلنا المستتر على شفاهٍ يبستْ تحت وابل ثغرٍ طيب الريق، تعلن قصة حُبٍّ مستحيلة، لكنها تستمر رغم التعثُّر، إنها ملاصقة روحي في جلجلة تستفز شوكة، تسقط على حباتٍ فاضتْ من سقف ذاكرتي، لا أتمالك جذوري حين تزحف على نوافذ أصابعي.

يتلبَّد الأُفق بأساطير الجنيات؛ لتنمو مثل صرخة مبلَّلة تحت ثوب الضلوع، أشيع هيجان الاضمحلال حتى تزدهر النشوة، نتقاسم مشاهد تسعى للإطاحة بكل الأشكال الهندسية، لا يمكن لها أنْ تخبئ المربعات؛ لأنها تنشد مزامير، تستنشق عتمة الارتواء، أمطار تتشبث مشاعر مقلقة؛ لتنهض مع رشقات الفجر، ربما صخب يوقظ نبوءة.

تتعب المخيلة، أتحاشى الصدمة، نتقاسم عادات أدمنتْ الخراب؛ لنستعيد صورة تفتح ذراعيها لتأوي طين الأرصفة، لتشيد طريق الحجر.

حُمى عصافير تسعل بدون اعتذار، تكسر حاجز جُرفٍ ينخفض بضجرٍ، يتصارع بازدراءٍ، يغمر نسيج الهدوء؛ ليولّد محنة تفتح عينيها بخجلٍ.

حلمتُ البارحة برجلٍ طويل القامة، لحيته الصفراء تعكس حدَّة، زرقة عينيه التي تتلمس دربها بوهجٍ مرسومٍ على أمواج مياه ابتلعتْ قوارب لا حصر لها، في اللَّيلة الحالكة نفث وجعه حين تساءل:

ـ هل أنتَ من بغداد؟

مسح شاربه الكث بقبضته، بان سوار حديدي أحاط ساعده، بعدها وشم صمته مهابة لا تتوهم الطرق الحجرية، التي جاسها بقوة تنسل من سيفه المطرز بالمسامير، صوَّب وجهه نحو الشرق، وقال:

ـ أما زال هارون الرشيد هناك؟!

رغبة جامحة جعلته يسألني، سطوة تعاود النطق، وعجتْ خطواته بالحنين، بحث في الفضاء عن نقطة تكوين تبدد ضمور الصبر عنده، قلتُ:
- أظنكَ شارلمان.

شهق في العتمة الشاخصة، واستفز سنابك خيله وهي تصهل، تركني غافيًا تحت بياض الفجر، أستغيث عصورًا مطفأة، وأسبح في هواجس شائخة، أهرب نحو بحرٍ مثقلٍ بالسفن، أدور في سواحل تعشق الرمل، خبأتْ تحت ذراتها أفواهًا جائعة مثقلة بلهيب السياط، تنتابني حمى لا تخمد نيرانها، وهمٌّ ينتشي في زرقة مضيق، يسكب خفقان حكايات موحشة، تضاجع شرنقة أحلام، تصارع أهوال المحيطات.

تتخبط صور الطيف المثارة بلا جدوى، ترتعد داخلي مواضع الألم، فتنزف رائحة تتراكم، دوار يهاجر في فجواتٍ غادرتها مياه الذاكرة.

لم أعد أشعر إلّا بنبض وريدٍ ينتفض في رقبتي، انتابني هوس تراشق مثل حجارة تلطمني، رفعتْ رأسها، تشابكتْ نظراتنا كأنها من زمنٍ بعيدٍ لم تلتقِ، في دوامة المشاعر الجارفة يذوب الصمت، فكرتُ بالنهوض، لا شيء سوى كومة جمر تشتعل في قلبي، تنهمر ترنيمة وجد أوحتْ لي بالألفة، أصحو على خاطري، ينحسر النبض في باحة الرغبة، قلّبتُ جمرات الأفكار تهيَّأ لي أني رأيتُ في الزاوية البعيدة أشباحًا تتوسط بيت الخلاء تتراقص، رحتُ أشاهد ما

يجري في فجوة رأسي النائمة على خيوط العتمة، يرقد ببراءة ضوء شاحب يفترس الصوت الآتي من بعيدٍ.

تشكَّلتْ حرائق في أسس هذياني، تتأرجح بين التوهُّج والخفوت، مشحونة برقاد، بوصلة الصمت واللُّهاث يفزع نحو ظلال الهاوية منطويًا على أسرار دهشة محددة، تغزو جسد اضطرابي وسط حشرجة التراجع؛ لأبدو مثل فريسةٍ تزحف نحو دهاليزٍ مجهولة، يتدفق الخلل منها منكسرًا، يفيض تمردًا.

لا أقدر على البوح، نهضتُ بتكاسلٍ، سرتُ نحو الاكتظاظ، صدى صوتكِ يرنُّ في أذني، عدتُ ثانيةً إلى الشارع الذي بدا خاليًا إلَّا من المساء، يرخي سدوله على المدينة الغافية، وذاكرتي تطرق أبوابًا غير مشرَّعةٍ، تشتعل داخل بوصلة انصهاري، تكشف غموضًا يطلُّ من نافذة عيوني البلهاء حين تصافح التماع عينيكِ.

عاودني النُّعاس كأني في رقدة أبدية، أستشعر سخونة لهيب، يلفح طيات خرائط جسدي النحيل، كنتُ أذوي وخز يغدق بأفواجٍ تطبق على الأفق، تتناثر حولي رؤوس مثقلة بالاستغاثة، ينهض من جديد شارلمان يبحث عن هدايا صديقه هارون الرشيد.

الأشياء تتوهج بشعاعٍ يهمي على امتداد المعبر المائي، صور مضجرة لأناس يهربون بقوارب تحوي صندوق طلاسم، تكسر قيود الجرأة، تعيد تركيب نسيج الحكام والحاشية، تتهادى سلاسل طويلة من الأحياء، يهربون من الانقراض، وشم يفغر فمه في قاع المياه تحتويه القواقع، الصدفات، الأشنات والطحالب.

في العيد التالي أقبل الضجر، ومعه يزحف السندباد بحثًا عن بقايا حضارة بُنيت من رموزٍ مبهمة، تُعنى بحكايات ألف ليلة وليلة، ودليلة تسكب الزيت على جرارٍ، تحوي مسلة غامضة، تنسج خيوطًا غارقةً في عناقيد السكوت، سحنات غابتْ عنها أنفاس عطر، عبقتْ بمساحاتٍ تطبق على خواءٍ، يزدري سوط الحواس الملتهبة.

لمَنْ ألقي شكواي وإرثي ثقيل، ليونة جسدكِ تتحجر كجدار أسمنت يطلّي الضوء بلون الغبار، تمتد أصابعي تتحسس لزوجة أفكار متقطعة، تبتلع مركبًا، يحوي قصص اللّيلة الثانية بعد الألف، حين تعبر الأحلام بين ضفتين، تحملان هاجس التنامي لأجنحة، تنفرد بلا رقاد لتكوين صور، تخرج لعبورٍ ينازع الأنواء، صرتُ أتمنى رؤية غرناطة، أحمل كيس أسراري المملوء خرزًا، وتمائم أهديها لملكٍ شرع يحكي بفصاحة تسافر بممالكٍ، تستعير علاماتٍ، تهطل ظنون مفرطة لتضيء ما حولي، تتأرجح ببهجة مشرقة في مجرى الريح، تشدني لعوالم قائمة في سُمرة بشرتي، تجذبني لفردوس الغربة.

لا أدري.. لماذا قفزتْ على لوحة الذاكرة صورةُ مخزن الأخشاب الذي يملكه أبي، كان مبنى قديمًا، تعلوه الرطوبة، تحيط به الأبنية الرديئة ـ كنا نسميه الخان ـ في الطرف القصي تقبع غرفة الإدارة، بعد الظهيرة حينما يذهب أبي إلى البيت، كنتُ أستخدمه لنزواتي الغرامية لما أتمتع به من صلابة مدهشة، في إحدى المرات فكرتُ جديًا في الارتباط بمومس، لكنَّ إصابتي بداء السفلس جعلتني أُغير

فكرتي، طوال فترة المرض كنتُ ألهو بقراءة كتاب ألف ليلة وليلة.

في يوم الجمعة، نهضتُ متأخرًا، أبي يجلس على مائدة الطعام مرتديًا بچامته، قبل أنْ ألقي تحية الصباح، قال:
ـ اغسل وجهكَ، وتعالَ لأتكلَّم معكَ.

عرفتُ أنه سيحدثني عن موضوع الزواج، نظرتُ إليه من شقين خابيين في رأسي المستدير بذهولٍ يحوي المرض، ورغبة مصحوبة بالغثيان، لم يستمر حديثنا طويلًا فقد رفضتُ عرضه، تأوه أبي لكني حزنتُ، فقد منعني من الذهاب إلى الخان، في المساء قرر بألم إرسالي إلى خالي المقيم في مدريد، هناك اكتشفتُ تجاعيد تنمو على بشرتي، رسائل مضمخة بالعطر، دوائر تنثر ليالٍ مفعمة بنوافذ بالونات المواعيد.

يستفيق جسدي كعادته يهذي، أجلس أمام شاشة التليفزيون، الأخبار تختلط مع اللَّيل، وفقاعات دمي تطبق بفزعٍ على مواقع الصواريخ حين ترمل وطني.

أغافل ليلة العيد؛ لأبحث عن شهقة لطختْ أروقة عظامي، وعرفتُ أنَّ العصر الحجري لم ينتهِ، طعم الغضب يملء رئتي، تذبل رغمًا عني نهاية حلم.

شريطٌ ينبعث من فورة جداول تشتبك بضغطٍ متشنجٍ كهمهماتٍ، ترنُّ محملة بالوعيد، تستغرق بالرجاء والنشيج، صوت يفتش عن شارلمان.

نافذة اللّيل لا تبالي بخوفي، تسد في وجه الريح افتراض زمني، يأكلني التململ، يغادر إرباكي، تُفتت أشلاءً، تتقافز هروبًا من نهش الحكايات.

أعاود البحث عن كهفٍ يدفء خيالاتي الغامضة، أستنشق رائحة فريدة، إحساس عذب يأتيني من كيانٍ عتيقٍ يشدني، تتراءى لي قباب ذهبية، وأضرحة تعطيني شعورًا بالطمأنينة، وأفيق صديقتي الخلاسية بشعرها الأصفر المجعد، وعينيها الملونتين بلون البحر الممتد نحو أفق الأحلام النابضة بلا توقف، تحصر جسدها الطري ببنطال جينز وقميصٍ يكشف سُرتها المنكمشة على مسامات بطنها الملساء، حكتْ لي عن معاناة رحلتها من جزر بحر الكاريبي إلى مدريد، فقدتْ اليخاندرو صديقها الأفريقي الأصل، اغتاله رجال عصابات تهريب المخدرات، خضعتْ لرغباتهم القاسية لأجل النفاذ بحياتها؛ لتحطَّ الرحال في مدينة يغمرها التاريخ، والوهج المتشظي في الطرقات السالكة.

كنتُ أرى فيها صورة أفتقدها باستمرارٍ، تنمو داخلي بهدوءٍ آسر، تنثر في أوعية أفكاري دوارق مملوءة بقبلاتٍ تنضح وداعة، لم أنم تلك اللّيلة، فكرتُ في مراهقتي، وإدماني الاستمناء، كيف كنتُ أحاول العبور خلسة إلى سطح جارتنا، أتطلع خلسة نحو شباك حمامها المكسور، أراها تستحم مغمضة العينين، الماء ورغوة الصابون تسيح على تقاطيع جسدها الأسمر، تظل تحرك يديها بنشوة حول نهديها النافرين، خصرها امتداد إلى أسفل المثانة،

تتوقف طويلًا هناك، ترتعش مع البخار الصاعد بحرقة باتجاه النافذة المكسورة، مأدبة بصرية تجعلني مدمنًا الضغط بحرارة وإرهاق حتى إسالة اللزوجة المنحدرة بين ساقي الضعيفتين.

في المقهى الأسباني، أشاهد العالم يمرُّ بقرب شوارع تصطف على أشجارٍ وقصورٍ ملكية، مسارح، ملاهي تدمن السهر حتى بزوغ الفجر حيث للفنادق شخوصها، ألمح جارتي تسرح مع كلبها المدلل، في انطفاءة السلَّم، أُشاهده يحوم حولها برغبةٍ متعرية، يحتك بساقيها البضتين، تخرجان من ردائها المتوقف عند ركبتيها، أسمعها تقول لي:

- غراسيا.

أُحرك رأسي بانحناءة محتضنًا صديقتي الخلاسية، نمضي متعبين نحو شقتنا، حينما أفتح الباب قبل أنْ أوقد المصباح، يقفز أمامي شارلمان.

• • • •

أوحى إليها الخوف بغريزة تزلزل جسدها المنتفخ،أحلامها كوابيس، ظلَّتْ تراقب خصلات شعرها المتهدلة بإهمالٍ، تحدثتْ مع نفسها ملقية ظهرها على السرير المركون في الزاوية البعيدة قرب ستائر الدانتيل المتدلية بلون الحليب، تحيط النافذة الوحيدة المفتوحة على الباحة الخلفية مقابل خزانة الملابس التي تعكس ضوءًا خافتًا، يتسرب بصمتٍ حزين، يترسب داخلها فراغ موحش:
ـ كان يجب عدم الموافقة على قراره، إنها حماقة لا تغتفر.

اكتشفتْ حمى تسري في بدنها المترع بالهواجس تسبر أغوار قلبها، بقيتْ حبيسة العتمة ولزوجة العرق تغطيها، حملقتْ في سماءٍ مكفهرة، تعاني من الإهمال، تنفستْ الغروب، نهضتْ بتكاسلٍ واضح نحو دورة المياه استعدادًا للصلاة.

لم تتح لها رؤية زواجه والسعادة برؤية أولاده، يبدو لها أنَّ فؤادها هواءٌ، تحس أنَّ شيئًا ما اجتث من جوفها، أرقها يترسب في ضلف النافذة الوحيدة، ترشف ريح اللَّيل المبهم، تتساءل:
ـ تُرى أي العوالم تحتويكَ؟.

تنفر من النوم بانقباضٍ، تشم رائحة تنبعث من مكان مهده، تعيد تركيب أجنحة الشوق، تأتي الأشباح تدور، تتحسس الجدران، تلتصق بخطاه المفزعة، ترج أعماقها، هزتْ كتفيها مبهورة الأنفاس، حنان يجذبها لغابة تتكدس على وجه الوسادة، تتراكم فيها بإحساسٍ غريبٍ يجهض اغتراب ذكرياتها، يشتد تعبها في ملاعب الصبَّا... تزوجتْ هذا العجوز الذي يكبرها بعشرين عامًا، تتربص

دورها في ليلة الحب؛ لأنها الزوجة الثانية، طبيعتها الكتومة جعلتها تملُّ لعبة الفراش، تتوق لطفلٍ ينمو في أحشائها مثل بذرةٍ برية، تتحرك في ظلامٍ يشع بحراجة متعبة، رذاذ الذكريات يهمي في الشهر الرابع من الحمل، أحستْ بالجنين يتحرك في بطنها المنفوخة، صافحتْ عمود الخيال الخافق على الجدار الجاثم بصمتٍ، يبهر الرعشة المستقرة في بدنها، تحكي بلا ملل عن وليدها البِكر يحبو أمامها.

أزلقتْ رجليها المترهلتين تعبر الدهليز، تتسلَّل بخفة نحو الباب الرئيسي، تمضي مسرعةً لموعد استحكم في رأسها، الشوارع مثقلةً برداءٍ قاتم، ملامح الفجر تمسح ذبول اللَّيل، تتعلق في دفيف أجنحة تحملها إلى المرقد المقدس.. سيدي مَنْ يحمل عن كاهلي انطفاء يرخي ذعره علي وجيب صدري.

تلتهم انجذابها المتسرع وسط جموع الزوار المتدفقين نحو المنائر المزهرة، تبصر الباب الكبير، تغرق في طوفان متلازم بحضورٍ مدهشٍ، ينتفض وسط الصيحات المجلجلة، ينبعث داخلها السرور، ينفذ شعاع محبة ابنها، يتمرى في دعائها المنساب مع دمعها الساخن، يكوي قواها الخائرة، تحس بينابيع مبهمة الحواس، تنبعث متدفقة بيسر، تتذوق اكتشافًا، يمنح فرصة للضوء، يشخص بانغمارٍ يملأه الضجيج.

في المساء جلستْ أمام زوجها، ثنتْ ذراعيها تحت وجهها، لم تجد في رأيه ما يقنعها، الإضاءة الخافتة تجعل الجو المشحون أكثر

إيلامًا، نظرتْ باتجاه المنضدة، تقفز أمامها صور عديدة بلا توقف، الاعتراضات التي أبدتها أنجبتْ ليلة مليئة بالعجز، تعاند إحساسها بالنُّعاس، تسلَّلتْ إلى غرفة النوم، تعثرتْ في زحام أفكارها، تمسك طرف السرير البارد، تمنتْ لو تراه الآن، تسمع صوته الجهوري، تمسح العرق من جبهته، وتشم عرقه تتوهج في يقظة، تفزع إلى وسادتها، لكنَّ النوم يتفتت في وجه اللَّيل النائم على الفضاء الموحش، لا تستطيع إخفاء ارتباكها وجفاف حلقها، حاولتْ أنْ تبلِّل ضجرها، تتلو أدعيتها بصمتٍ.

ظلام مدوٍ، كم كان شقيًا هذا الولد الحنون، أحبَّ تربية الدجاج، وحينما أراد أبوه ذبح إحدى دجاجاته، حَزِنَ وانطوى في غرفته، ترك اللعب وأهمل دراسته، وجهه العبوس يخفي وراءه قلبًا ودودًا، حينما أخبرته بأنها ستذهب لزيارة الإمام الصالح، هبَّ خلفها وعينيه الغارقتين بالدموع تشبه عيني قط متحفز، يمضي معها ملتفة بردائها الأسود، يتعثر بأذيالها فتنهره: يا أعمى.
تتذكر كم كانتْ أمها تطلق عليها هذه العبارة، حينما وجدتها مع صديقتها تمارس لعبة مضنية في الغرفة العلوية القريبة من سطح الدار.

أثناء المرحلة الثانوية، ارتبطتْ بعلاقة عاطفية مع صديقتها آمال المتمرسة في لعبة الحب الشيقة، تداعب كرتي صدرها النافر بصلابة متأججة، بيقين في الفراش طوال الظهيرة تحت الغطاء، تستمر الحركة بلا توقف، تتنفس باسترخاء تحت وابل إحساس مفرط بنهمٍ، يلقي ظلاله على مساماتها الضاجة من وجعٍ لا يرتوي.

صار الأمر أقرب إلى الفضيحة، حينما حملتْ الأم أقداح الشاي لابنتها التي تدرس مع صديقتها، ابنة الحاج شلتاغ التاجر المعروف أحد أعيان الحي المتسربل برداء العرف الاجتماعي المتزمت، الشرف زجاجة إذا كُسرتْ لا يمكن إصلاحها.

شاهدتْ المنظر المؤلم، يكتسي لون الفجيعة أمام الأجساد الطرية، عاينتْ الحماسة الذابلة في سماء القيلولة، النهار الموغل نحو الغروب، يمنحها إحساسًا بالصقيع، ويغمرها الانهيار، أدمنتْ لعبة التأرجح بملامس تشع لقشعريرة حرارة القبضة السارحة تحت كل الطيات، ارتأتْ أمها عرض الموضوع على والدها للإسراع بزواجها حلًا بديلًا للممارسات المتعبة.

يمتدُّ هلامٌ مجروحٌ من رطوبة غيمة، حطتْ على رأسها الموجوع من المفاجأة المفزعة، تعثر بعدها رغم الامتزاج الغريب في الرؤى عمَّن يحل المعضلة المكرَّسة في جمراتٍ، تترصد إصرارها المرتحل صوب النفاذ، الإدمان مسار يتواصل بهسيسٍ، يدبُّ على رقعة الجسد الموشوم بالرغبة، قاومتْ طلب أمها بإصرارٍ يصل حد الإغماءة.

- يا إلهي.. كم غبية هذه البنت!
- أنتِ لا تفهمين مشاعري.
- اللعنة عليكِ وعلى المشاعر الزائفة، يجب أنْ تفرغي الطاقة بالحلال.

ضحكتْ الصبية بجذلٍ، كيف الخروج من شرنقة الأشباح حين

تسيطر على الجموح المحلّق في مخيلتها، الصمت وجدٌّ ينساب في طرقاتٍ تمضي أمواجًا من خلواتٍ، تكتسب رمل الأحاسيس الطافحة بقاربٍ منهمكٍ بضفافه العطشى، بعدها استسلمتْ الأم لعهر ابنتها.

الخطيئة تنهض وسط القيود المتكسرة بصمتٍ، يئن متمردًا خلف الأبواب المغلقة بلا رادعٍ، تكشف عن التشظي، وصراع الأجساد حين يتوغل بغموضٍ مترسب، تتلاشى فيه الوجوه.

مع آمال كسرتْ بجرأة نادرة وعاء الطقوس، تترك ساقيها البيضاويين تحت ضغط سوط كتل اللحم الفاحمة لصديقتها، تبتكر حواس منسوجة في شعرها الداكن، عيونها العسلية تخفي وراءها سباتًا جهنميًا يقتلع الإغفاءة.

- ألَّا تشبعين يا آمال؟!

- ليونة جسدكِ تغوي.

ما زالتْ ترقد على السرير بتعبٍ واضح، قطرات العرق تسيل على الأعضاء المتعبة، تحتفي بهمس حكاياتٍ لا تنتهي.

حانتْ وجبة المساء، لم تزل خصومتها مع أمها شامخة الصدر، منصوبة القامة تشعرها بالملل، لم تكن لها رغبة في تناول الطعام، انسحبتْ إلى غرفتها، وجدتْ السكون يبث مفاصله، خُيِّل إليها أنها ترتجف، وأنفاسها الراقدة على زجاج النافذة، تتابع صفيرًا يأتي من الخارج، تدفع روحها، بدنها كإمضاءٍ خجولٍ، يجرُّ وراءه خطوطًا مرتعشة بضوضاءٍ تنبت في مسقط الضوء المهتز على قمة الباب المغلق دومًا.

الطُرق الخالية التي تقطعها يلفها الغروب، تحيطها شجيرات السرو، تلمح السماء المضطربة تاركةً وراءها أسراب الطيور تحلّق بأشكالٍ هندسية مفعمة بأصواتٍ ضاجة.

في النهاية ينحسر الضوء، وتظهر قطع مظلّمة، تأتي عاصفة هوجاء من الجهات الأربع، تهتز الشجيرات، فقاعات الظلام تبدو أكثر إيلامًا من صورة زوجها الذي يضاجع امرأة بيضاء جوار حائط ملاصق لمؤخرته، حينما رآها تحدِّق به بنظرة غاضبة ارتدى كثبان الرمل، ومضى تحت دوي صياح رعاة الإبل، فاختلطتْ في عينيها قطع سوداء، همتْ بالرجوع لكنَّ ملابسها غادرتْ جسدها المكتنز، وجناحين هائلين يهبطان لإخماد أنين موقدها الرابض وسط الرماد.

تنصتت لطنينٍ يسخر منها، ترتجف غيظًا، قوائم سريرها تنهار، تريد الكتابة لأمها، أحستْ بأنَّ وحشًا مفترسًا ألقى بها جانبًا، راقبتْ وهي مستلقية على ظهرها بإهمالٍ، إقبال الرعشة نحو بدنها المترع تحت علاماتٍ لا تقبل التفسير، سبرتْ أغوارها في سماءٍ ملبدة، تأملتْ كثيرًا لو أنها تستطيع التخلُّص من هواجسها، تقضم وجنتيها دموع ساخنة، والحمى تنتفض في جسدها، الشجيرات المزروعة في طرفي الحديقة الصغيرة تشم رائحة اللَّيل الهابط بحذر.

تفتح عينيها، بطنها المنتفخة تؤكد لها حقيقة حملها، وحيدة في غرفتها تناجي الجنين، عيونها المطفأة تلحُّ في السؤال المعقد عن البذرة المتحركة داخلها.

صعدتْ تلك اللَّيلة؛ لتقرع الباب الزجاجي لسخطها، ويتضاعف بلل وقع أقدامها؛ ليعرقل رغبتها الصارمة، أخذتْ تستعيد ظروف تعاطفها مع زوجها، تلمس منه عطفًا يسافر مع انفعالاتها.

لأول مرة تذوق الحب، وتسنح لها فرصة اكتشافه اللذيذ... اقتربتْ من النافذة، شمتْ رائحة التراب، انبطحتْ على السرير، تحسستْ نعومة الفراش، ثنتْ ذراعيها تحت وجهها، وسبحتْ في نومٍ عميق، غريزة الحب أوجدتْ لها فضاءً آخر، يهمس إليها تتحدى به القدر، وتجفف به عرق اليأس بلا حذر، فشلتْ في الاستمرار بلعبتها، مازالتْ تحنُّ إلى ابنة الحاج شلتاغ.

تراكمتْ صور ممسوحة المعالم في ذاكرتها، فكرتْ بسفرتها الأخيرة إلى (الغوطة) حين أغلقتْ عينيها على متعة متشاكسة تتحرك في دوائر مغلقة، لكنها تنفتح على حلقات مضنية، لم يتبعها زوجها، بقي في بغداد يحافظ على دارهما الآيلة للسقوط، بقيتْ مرتاحة البال، فقد استطاعتْ أنْ تطمئن على ولدها المقيم في مدريد، بدتْ معزولة في مساراتٍ مقفلة، تنطوي على طرقٍ مأهولة بين ضياعٍ موجع ومخاوفٍ مقلقة، حلمتْ بالأضواء لكنَّ الانطفاء الذي يحاصرها يزيد ذوبان إعيائها في شرنقة الجسد.

حاولتْ أنْ تطلق نداءات؛ لتستعيد حرارة المودة التي تركتها عند باب البيت، لكنْ لا شيء يمنحها الاسترسال، فعلامات الأمل طُمِسَتْ ولا يقدر أحد على رؤيتها.

• • • •

كرَّستُ عمري بحثًا عن جُزرٍ رسمتها في خرائط تضفي رونقًا على جسدٍ محاصر بزوابع غبارٍ، يستيقظ في الهياكل المتكدسة.

عند الفجر تفترش حبات الندى حلم أُمي الغافية على أهداب الفجيعة، تُرى.. مَنْ يوقظها من ذهول سباتها؟ والحزن أشداقٌ تلتهم ندوبًا تنمو كالطحالب فوق دموعنا الواجمة.

الإشارة هذيان يتفرس الوجوه المتعبة، تحوي صمت بيتنا العتيق الغافي على صور أبي الجاثمة خلف زجاج، يحتضنه إطار متسخ، يرنو بعينيه لحلمٍ شائخٍ، يتعرش فوق رائحة النخيل، ويجعل أُمي تزرع خرافتها بتمازج الألوان، واشتراطات تفكك ـ ثوابت ومتغيرات ـ في سياق التأصيل حتى ينبض بريق متراكم، يحوي شرط اللُّعبة، يكررها أبي في أجواء الحرب.

يبشرنا علانيةً (بالصدمة) التي تمرُّ فوق رؤوسنا، إنه فصل اضطراري، يبتلع هاجس الرعب الملاصق لجلجلة صواريخ (توما هوك) مصحوبة بدوائر تبدد الدماء حتى تغطي أدعيتنا السماوية، تتناوب في تأثيث الفراغ الذي يرتفع وينخفض في تخسفات أجسادنا، التي تشعر بنمط الدهشة الممزوجة بالعجز الفاضح حيال أول طية تختبئ في حاجاتنا النهمة.

نجتاز الشراسة بوعي مبهم؛ لكي نتمكن من الاحتفال بالغضب الذي ينهي ليلته بعناقيد مظلّمة، تتجاهل الأحياء في قسوة تعكس ملامح صخرة.

تنفتح الطرق تحت مدارج أقدامنا، نستعيد ضجيج أجواء المدينة

مشبعين برغبة سحيقة تتزين بقلائد عنفٍ متكهرب؛ لنعثر بعدها على سحن متنافرة تلاحقها نيران المفخخات في هواءٍ ساخنٍ، يحاصر اشتراطات اللُّعبة.

بمحاذاة امتزاج الطين حين تفتح زوائد طحلبية؛ لتنشئ نتوءات خشنة وحادة تقطع ما تبقى من تأسيسات، تشاكس أصماغ الضجر المطبقة على رماحٍ نبتتْ فوق كبدٍ جفل من أوجاعه، فتطمس علاماتٍ تعصف بابتكاره المضني؛ لينبث في وشم الخاصرة حتى تتوالد شرارات متقدة بإهمالٍ، يعتصر الجو المكفهر بالغيوم، ويلهو مع الهواء قنديلًا تعبث به الريح.

حيثما ينتهي أبي، تبتدئ أُمي التي تعمل أمينة صندوق في المصرف، يستهويها رجل وسيم، تمرِّر يدها البالية على جبهة الأوراق المغرية، تتسرب في روحها موجة تحاول إخفاءها، لكنها تتبدد حينما ترفع بصرها نحو الزبون الذي يُكرِّس لوحه الخشبي في جيب بنطاله، يطاردها دبيب رغبةٍ مفرطة في اقتناص لحظة موجعة، لكنَّ أبي المشمئز يفهم سرها الدفين، يتفحصها بنظراته الجانحة، ويشيح وجهه عنها، يعرف ماذا انمحى من هذا الوجه.

اللَّيل يرتجف على أكتاف منزلنا، نسمع صوت رنين الهاتف يأتي من الطابق العلوي، أُمي تتحدث بحذر، يبقى أبي واقفًا بين السرير والنافذة المواربة، بينهما عوالم صامتة.

ريح اللَّيل ترشف روائح البارود، إنه لا يرضى عنها يلعب ببندقيته، ثم يسخر من روحه، يهرب من اللذة المدفونة ـ عند منتصف اللَّيل

نسمع أزيز (توما هوك) يعبر من فوق رؤوسنا، تتصاعد تمتمة نائمة لأحلامٍ تكتشف أسرار القلق.

يبتعد الصوت المخيف، أتطلع إلى رأسي في المرآة، يتكرر مشهد الخوف، أسمع دفيف أجنحة طير يفز من عشه، أسرع نحو أبي، لا تطاوعني نفسي في الصعود إلى أمي، لكنها تندفع من فسحة السلَّم مرتدية ملابس سوداء، تكشف زنديها الممتلئين، وفتحة الصدر الواسعة تظهر عري ثديها، تنزل مسرعةً، تطفئ مصباح المعبر، تبلغ غرفة نومهما، تتحسس رقبتي بارتجافٍ، تقبلني، تجلس على السرير، جذعها المنتصب يرسم على الحائط ظلًا غريبًا، أوحى إليها الخوف الجلوس في صمتٍ مطبق، شعرتْ بالحمى تسري في جسمها المنتفض من دوي الانفجارات، راقبتُ ظهرها وإبطيها يغزوهما عرق لزج (تضرعتُ داخلي لو تنقشع العاصفة).

لاحظتُ عيني أبي في العتمة المطبقة، بذرة واهنة بلا تعابير واضحة، تهامس الضوء المنساب من الشباك مع موجة الهواء المقبلة من الأرجاء، حملت رائحة اشتعالٍ، تتلاشى عندها خدوش السخرية التي أثارتْ غضب أبي، ذلك الصنم الذي لا يتزحزح، فتلوثتْ الغرفة بالعطر ودخان السجائر والفراش؛ ليشي معالم يلتهمها حاجز الخفاء... (بقيتُ ألهو باصطكاك أسناني).

في صباح اليوم التالي على مائدة الطعام، وضع إبريق الشاي الساخن، وعبر النافذة المغطاة بستائر الدانتيل الأبيض، تتحرك بفعل نفحات الغبش المتسربة إلى الداخل، كانتْ أمي تكلّم أبي بلهجة

حانية ثم طبع قبلة على خدها... شخصتْ إليه لم تحظَ بمثل تلك النظرة العذبة، استمدتْ من هذا الوجود هدوءًا لم تعهده.

بقيتُ أنصت لصوت هديل الحمام، لصقتُ وجهي على لوح الزجاج، بقيتُ زمنًا طويلًا أشعر بخمولٍ لطيفٍ.

في لحظة خاطفة، هبط جُنح الظلام، ارتفع بعدها دوي صوت مفزع، اهتز المنزل، تحطمتْ المائدة سُمِعَ تكسُّر الزجاج بوضوح، هرع الوالدان بذعرٍ خارج المطبخ، انهمار الأسى في هذا الصباح الحالك، أثار البغض، ونأى عن ذهني إحساس الطمأنينة، وتصاعدتْ بواعث الغضب، طويتُ في جسدي الفاني ألمًا، ينهار أمامي كطريقٍ مقفر، لم أقوَ على النظر، فأغمضتُ عيني لأتغلب على زمني الموجع، فوضعتُ حجرًا تحت رأسي وغفوتُ.

تفزع تقاسيم وجه أمي، كم استغرق وقت الهذيان، واحتراق يلسع نافذة الحمى التي انتابتني، فتشتُ في جفن الصباح المنكفئ فوق أشجار المنزل المتمايلة بقلقٍ على جسدي المنتفض حول غصن ارتجافي.

يتحرك غموض يحاصر صورًا متناثرة في عيوني، صوت أمي يأتي من بعيد، أحسه يصل إلى سمعي من دهليزٍ يتفتت السنة تحوي أدعية، صرخة ملتاعة.

هدرتْ اللَّيلة أحاديث وشهقات، تحسم ألوانًا تهرب في شاشة التليفزيون، لوحة متحركة تطفئ ظمأ أُمي مرتدية ثياب نومها، تدخن سجائرها بشراهة، يبقى أبي مستمرًا في إعداد أرقامه التي

يحرص على دقتها، تبلّل عظامه قطرات العرق، ينشف رقبته بمنشفة كبيرة، وينفث ريحًا ساخنة في وجه الأوراق الممتلئة حزنًا واحتراقًا، يبقى مصغيًا لمذياعه الصغير.

نورٌ خافتٌ يتسلّل من غيمة الدهليز، متململًا على فراش نوم، يخوض عليه همس يفزع ظلّي، أسأم من دهشة مبعثرة حين أكتشف أمي مع رجلٍ غير أبي، يفجعني المشهد الماجن، أسمع من بعيد صوت أغنية تذوب في ضجة الشبق المستعر.. مَنْ يمحو الرغبة؟ غلالة الظلمة تزحف بتوترٍ يقرع مدخل السرير، أشاهد أبي عاريًا يصافح مسامات جسد غريب، لم تكن أنثاه أمي، كان يضاجع رجلًا يحوي خيالات امرأة، بألفة غريبة يجرجره باختيارٍ مخجلٍ، يشكون أوجاعهم الغريبة.

أبتعد منزويًا، كنتُ منسحقًا في أفقٍ تتباين فيه حُمى عائلتي الصغيرة، انصرفتُ أخبئ فراغًا يتضارب في جسدي الأجوف من المشاعر.

في يوم الاثنين الماضي عرفتُ أنَّ أمي وأبي مطلقان منذ ثلاثة عقود، لكنهما يعيشان تحت سقفٍ واحد، يمارسان إثمهما بدون ارتباطات حياتية مألوفة.

في حجرتي الرطبة تدثرتُ منكمشًا بلا صواب، همي الوحيد البقاء على قيد الحياة.. حين عاود (توما هوك) السقوط؛ ارتجتْ الأرض، تمايلت، سمعتُ صوت الشظايا تنغرز مثل السكاكين في الجدار.. يجفُّ الدم في قلبي من الغليان.

كنتُ مصممًا في الانفتاح على شهية الولوج لمعالم توقظ داخلي بهجة الهواجس التي لا تُقاوم، أغمضتُ عيني، سمعتُ استغاثاتٍ موجعة وإطلاق رصاص.. بحثتُ عن أشيائي المفقودة..
فتح أبي الباب، همس بلوعة:
- ولدي.

حزمتْ أُمي حقيبتها، أنفاس أبي ملوثة، وعطر أُمي لا يغري يطفح بالهيجان، أبقى محدقًا بالنافذة.. الشمس وصلتْ حدَّ المغيب، طيور النورس تحلّق فوق الجسر المطلّي باللون الأخضر بانتظار صاروخ جديد... تفزع أزرار زمني المقلوب حين يخفت الولع، وتمتلئ الأرض بأحزمة الرصاص، السماء تمطر دخانًا، ويفتك جلودنا اشتعال متأجج.

أُمي تخوض في شارع الصالحية بحثًا عن باص يقلها إلى دمشق، تنفث دخان سجائرها، وهي تجلس على آرائك الصالة المطلة على الشارع المزدحم بالمسافرين الهاربين ذوي القلوب المطفأة، تشعر أنها مراقبة، لكنها تبعثر حصون الرمل بنظراتها العسلية.

يستفيق الارتباك لتحشر بعدها جسدها المكتنز في المركبة الكبيرة الممتلئة بكتل اللحم، تشهد نهاية مرحلة مضت بمآسيها الموجعة، تصفع علاقاتها المتوترة بنفسٍ عميق من لفافتها المتأججة.

شمس الظهيرة تنزف حرارة متقدة فوق الباص المغادر، وفي صدرها المتيقن بالنفاذ، صحراء تمتد من فتحة أبواب السيارة المنطلقة حتى الأفق الغارق في غواية الألوان؛ لتكتشف بعينيها

امتصاص اللعب الذي استهواها زمنًا ليس بالقصير.

بدتْ معزولة في مسافاتٍ سحيقة، مكلّلة بالعجز وقلة الحيلة، تدور بنظراتها، تمنتْ لو ترى أبي ثانيةً، تتبادل أفكارها مع نظراتها الغائمة، ترتقي بطريقتها مواقع تعجُّ بالذروة، يبدو أنها تفتقده لإحساسها بالترابط العضوي بينهما رغم الاختلافات الناجمة عن عواطفهما الممزقة تحت وهن الإحباط، لملمتْ هلام أفكارها، تعاطتْ مع ألذ ساعات الانجراف، طيش المشاعر يجرح ركام الأحاديث المعلقة على مفاصل منسابة فوق الوهم والحقيقة المجردة، لتنبت حافات تتكسر عليها أحلام تغفو بصمتٍ مطبق.

بقيتُ مشتتًا بين بوصلتين، أُعاني من البعثرة، تتورم المرارة في فمي، ترتخي عواطفي النزقة بين تأرجحٍ يتأبط الزمن الرديء وحاضري المبهم.

• • • •

صور عشوائية تسهم في رسم طبقة أفقية، أثارتْ اهتمامي، كنتُ أقاوم غريزة مبهمة حين سرتُ مبتعدًا خافضًا بصري إلى الأسفل، احتجتُ الرقود لكنَّ ثقبًا امتد في رأسي، جعلني أسبح في مجرة متناهية، يمتد ضوء أخضر لنجومٍ تسبح في فناءٍ مضطرب يشعرني بالانهيار، حاولتُ التخلُّص من الوهن بالتركيز في التحديق بالسقف حيث المروحة تدور برتابة مضنية، ثم انفجر ضوء أنار الغرفة الغارقة بمجموعة الصور الباهتة، أحسستُ أنَّ امرأة تثب للعب فوق سريري المكتظ بصولجاناتٍ مهملة بأبعادها الهائلة، شعور بالذنب يراودني، ليستْ هناك استثناءات، انتشرتْ أشعة الشمس في الحديقة الممتدة من بداية البيت حتى نهايته بشكلٍ متوازٍ مع الأبنية القابعة قبالته.

الغرف تعطي ظهرها لشجرة التوت، بينما تقع في مواجهتها مبردة الهواء تدفع هواءها الرطب إلى الحجرتين المتلاصقتين.

زوجة أبي تبدو منهمكة في اتصالاتها بعيدًا عن أبي الذي غادرنا، كنتُ في العراء وحيدًا تحت شجرة الكمثرى، أُحاول قطف ثمارها، لمحتُ رجلًا يدخل البيت خلسة، سمعتُ صوتها جذلًا، أردتُ تفسير كل شيءٍ، ذاكرتي أعطتني نبوءة، أنَّ لها فمًا آخر غير هذا الذي تقبلني به.

في العالم المشع، أُشاهد خجلي المتسمر عند فتحة المبردة، أسمع صوت شهيقٍ وزفيرٍ، ألمح فمًا يغطي نبضًا، يستغرق بخوفٍ، يتنفس باستمرارٍ، جحظتْ عيناي، مضيتُ إلى الطابق العلوي،

بقيتُ أُحدق في بئر السلَّم مازال صوت الشهيق والزفير، يطفو على الهواء، خرجتْ خصلات شعرها متدلية نحو كتفها، واضعة يدها اليمنى على فمها.

حلَّ الظلام مبكرًا، صعب علي النوم، شعرتُ بالانزعاج، كنتُ فزعًا، تحركتُ في الضوء الباهت، شبحها يمضي باتجاهي صورة مبهمة، لوحتْ بيدها، سمعتُ صدى صوتها يرنُّ في مجرى الهواء، نظرتُ نظرة بطيئة إلى الأعلى باتجاه السقف، كأنها تريد القول أنها أخطأتْ، انحدارها غيَّر أنفاسي، بدوتُ كمَنْ يشخر من مساماته، رجعتْ إلى مكانها، انتابتني حمى، أحسستُ أني أسبح فوق عشبٍ بري، الغبار يملأ الجو، الريح تزمجر، رحتُ أعدو، شبحها يطاردني، تيار من الدخان يعلو، يحمل هزيمتي.

أزحف أمامها مثل كسيحٍ، أصل نقطة مظلمة تتلاشى عندها الأشياء، أحاسيسي العائمة تتكئ على طوق جسدي المحاصر بأسئلة، تبرر الحزن في دمي، أنفاسي الحارة تسيطر على نمط ارتعاشي، اندلعتْ داخلي حروق الكراهية، وأيقنتُ أنَّ فوضى الحرب تخلّف شهوة لا مسؤولة.

في آخر الشارع تقع كنيسة الكلدان، تبرز من بين الأبنية، تتوسط دخان يتوالد مع مشاعري المتلاشية، سرتُ مسافة مئة متر، أدفع غيرتي المنفلقة من مكامنها، ومتعة الاضطراب تخطو فوق منحدر التقاطع، إذ مازالتْ أضوية المرور المعطلة تجعل الطرق مزدحمة ومسدودة، واصلتُ السير تحت لوحة إعلانات ضخمة، تمثّل وجهًا

مزهرًا بخدين متوردين، كنتُ ضائعًا تدفعني مشاعر متضاربة، حافظتُ على رباطة جأشي، فقد شاهدتُ الرجل الذي دخل بيتنا خلسة... قد تكون مصادفة.. تأرجحتْ نظراتي ذات اليمين وذات الشمال، خذلني قلبي، فقد كان يدق بقوة، جلستُ فوق الرصيف أراه أمامي وورائي، يتحداني بدهشة عظيمة، كنتُ على وشك الانفجار، سمعتُ صوت أنفاسي الرتيبة تنغرز في حشرجة لفتت انتباهي بجفافٍ مفجع، نهضتُ، رافقتْ خيبتي، ابتلعتُ احتمالات الخذلان، اختفتْ معالم الطرق، عاودني إحساس ينفلق في إدراكي كخيطٍ مربوطٍ في انحناء بؤسي.

ـ هل استمتعتَ بوقتكَ؟

كانتْ ترتدي ثوبًا رمادي اللون، يبرز منه صدرها ورقبتها وسلسلة ذهبية تسقط أسفل بشرتها الحنطية.

ثمَّة نظرة مستقيمة تملأ الجو بإدراكٍ مستوى التبدل في لهجتها، لم يكن من ضرورة للتكلُّم معها، فمازلتُ غير قادر على أنْ أنأى بنفسي عمَّا حدث، بقيتُ ثلاث درجات واصل باب غرفة النوم حاجز حديدي مقوس يحيط بالسلَّم من كل جانب، لم أملك كلمة مناسبة أرد بها، أردتُ البكاء وضعتُ يدي على الحاجز أتقد شعور فوق كتفي:

ـ لقد رأيته اليوم.

غطرسة ونقمة اجتاحتْ وجهها المسترسل في إهانتي، المكان مجوف بتوهج يتحلّل إلى أنواعٍ متدرجة من الانحطاط.

تفاقم حزني يزمجر اللَّيل في أحشاء الغرفة الطافحة بشحوب الألوان، يسلخ انفعالي المتأزم على رغوة تعثري، فأظل غارقًا في سكونٍ يتقبل الأوهام، في النهاية أقتنع أنه موعد عابر تخفي تحته عذابًا ينطوي على ألمٍ يتصف بالدناءة.

طال غياب أبي القسري، وبقي الرجل العابر يدخل بيتنا خلسة، أفسد حبي للدار، شعرتُ بالكارثة تسبح حول رأسي العائم بلا رجاءٍ، كان على والدي الالتحاق بفصائل تزج في الحرب عنوة، استهدفته ضغائن حامتْ حوله، كابد طويلًا للتملُّص منهم، لكنه رضخ أخيرًا على مضضٍ حين أعيته الحيلة، يبدو أنها طريقة سهلة للتخلُّص منه.

ينتابني خوف غريزي، ينبع من حطام روحي، مكالمات زوجة أبي الهاتفية أسمعها بوضوحٍ لم تعد تخفي شيئًا، ظلتْ تسير في مدارٍ مزعج يخلق عندي حساسية.

المساء الساخن وتيارات الهواء المندفعة، تجعلني أنتظر فقدان هواجسي المنقوشة على الوجوم المسيطر على صور أبي، التي تؤثث الجدران بسلطة مهترئة، تكشف حفرة السخرية؛ لتستثمر حقيقة الانضمام للأفعال المستمرة بلا توقفٍ.

حين يعود أبي في إجازته، تكون رغبتها قد انطفأتْ، فيستمتع معها بتقليد حركات مكشوفة، تحمل سحبًا من الوجع المضني بلا طائلٍ.

أكون القناص الذي يخفي عينه حتى أنتشل الخسارة، التي تخطو بين انسدادٍ ضيق، وانقباضٍ يجعلهما تحت مراقبتي المستمرة.

في نهاية الصيف كانتْ أعراض الحمل تظهر بوضوحٍ، وأصبح ضرب السخرية حقيقة أكيدة، تبقى تتململ مستلقية على الفراش، واضطراب أمعائها يتناثر في ألمٍ، يشبع غبطتي، فقد تحولتْ علاقتي معها إلى رسائل مجنونة بسبب الخيبة؛ لأنها وزعتْ ذنبها على خطئي المتسمر تحت طائلة الصمت المفجع، وبلاهة أبي الذي كان يشك بلا دليلٍ واضح، لذا لم يكن هناك مفصل صريح يحرك عواقب منطقية، ظل يتعايش معها بالتغاضي، ليقدِّم لي أنموذجًا مخيفًا يشعرني بالذنب؛ لتصبح بعدها روحي آثمة.

يتخلص القلق من سطوة التردد، وحين يسقط على حافات الوهن، يتمعن إصرارها في التخلّي عن الجنين، بعث وجهها الشاحب علامات ابتلاع السكون المضجر.

طوال نصف نهار غابتْ عن البيت، ثم عادتْ بارتباكٍ غريبٍ، جسدها المتين ذوى، وحمى أنفاسها تغطي المسافة من الباب الخشبي حتى سريرها الذي يصر تحت تقلُّبها الدائم، اختفى انتفاخ بطنها، رنَّ جرس الهاتف تطلعتْ إليه باشمئزاز، قالتْ:
ـ أغلقه.

ارتدى الصباح في الغرف المتقابلة أضوية مرتجفة، تظهر بوضوحٍ تام من النوافذ المسدلة الستائر بإهمالٍ، كانتْ شاردة الذهن كأنها تطحن أفكارها المحمومة؛ لينز عرق غزير على ملامح وجهها الذابل من فرط المعاناة، كنتُ أعرف أنها تكتم ألمًا حادًا، اتكأتُ على ظلي، أحاول مسح نصف وجهي، ونصف ذاكرتي التي

تشاطرني إزاحة الضوء المتمدد على جفنيّ المطبقين، أفتح شريط أحلامي ببطءٍ، أطوي توهج منتصف النهار بدون حراك، حاولتُ أنْ ألقي الأسئلة لكني من جديد طويتُ لهاث الشفاه، ثم جثوتُ على ركبتي، وغصتُ بدموعٍ مالحةٍ بغير انتظام.

احتجتُ مساحة تفصل بين الحلم واليقظة، انتصب الدرج أمامي، درجة بعد أخرى، أصعده مجففًا دموعي، أدرتُ مفتاح الضوء، رأيتُ وسط الغرفة شبحًا فاتحًا ذراعيه، شعرتُ بشيءٍ ما، وحين استدرتُ اختفى مع الحقائب والعلب المركونة في الزاوية.

• • • •

مكثتُ في رهبة المكان، يتتابع انحداري في وهادٍ ترابية، تتفكك الأرض شقوقًا مستمرة بلا انقطاع.
اللَّيالي لا طعم لها، وحالة الانقباض تولّد تشاؤمًا يسيطر على الكثيرين، شحوب النهار يجمح في تجاعيد القسوة، لا مفر من الترنح لرحلة المجهول، والوجوه المحيطة بي يتفجر داخلها انكسار.

أطلقتُ زفرة حين جلستُ على المرتفع الترابي حيث الأرض تنبسط مثل فراش يمتد نحو الأفق بلا توقف، ليس سوى العجز في المثابة المهملة، تنتابني الوساوس، ورائحة التحسس من الموت القريب تجعلني أعزف عن مجاملة الآخرين.

الانفعال الصاخب، يحملني على الحركة لكسر الجمود المنتشر في جميع الجهات الساكنة، بعد قليل أتعب وأعود خاويًا، ما ألبث التقهقر نحو الضآلة، تتسع فجوة الصبر داخلي حتى تتحول إلى سحابة تغطي مساحة ضجري الملتهب في حدود بصري الخابي.

تذكرتُ ليلة العرس حين احتميتُ خلف جسدها المنتفض عنوة ما جعلني أستسلم للدهشة، بعدها لم يكن من السهل التخلّي عنها، كنتُ فرسها الذي تمتطيه كل ليلة نحو كتل اللهب، تتقدم في ذهولٍ شديدٍ نحو قيعاني البور لتفجر ألوانًا زاهية، الطبول والأصوات المنبعثة من مكانٍ ما تخفي وجعي المتخثر.

رحلات طويلة نحو النشوة المحفورة في تجاعيد الجدران والسرير، واللُّهاث الممزوج بالأحاديث والنكت.

الاحتفاء بالجرح، أعلمنا بالبذرة المتحركة داخلها بشعورٍ مبهمٍ، يمتلئ عذوبة وترقب، تبقى خيبة المكان كذبة، تتشبث في تعرجات هاجس الضوء الغارق بقسوة اللَّعنة الجاثمة بصمتٍ مفجع.

حاولتُ مرارًا الهروب، والالتحاق بقوافل الهاربين، لكنَّ حلقات الأصفاد تطوق بكراهية عميقة مرارة اليأس من إيجاد منفذ، معها أخوض أعماق لم آلفها من قبل، بعد الولادة أحسستُ بها تتغير بتمردٍ مفجع، في الأسبوع الماضي جلستْ بعيدة عني، تنفستْ ملء رئتيها، تقربتُ منها، الدفء يهبط على الحجرة الجاثمة في الطابق العلوي، الستائر المتدلية بإهمالٍ، تكتسي بلون الغروب القادم من النافذة المشبعة بصفاءٍ، يشوبه انعكاس ضوء خافت.

كنا منسيين في وهج مشاعر متضاربة، تخفق مع نجمة متسربلة بوشاحٍ رمادي، تسكن قريبة من ضلفة الشباك المطل على مرارة اللَّيل الماكث بصمتٍ كثيفٍ، يلتف حول شجرة السدر الغافية جوار السياج الخارجي للدار.

اجتزتُ حاجز الصمت، بدتْ رقبتها مغرية بنداءاتٍ، تربط بيننا صلة تؤمن هوسي، انكمش جسدها نحو طرف السرير الفارغ، وهي تقول:

ـ هل تحبني..؟

ينقضي اللَّيل دون أنْ أعرف كيف نضجتُ بتداخلٍ غريبٍ، وعوَّد الإدمان على البقاء منبطحًا تحت لسعة تجمع مقاييس مختلفة، تكشف لوثة الرضوخ لامرأة، تفتح جروحًا لا تخلّف سوى الندب.

عرَّفتني على صديقتها (آمال) بشعرها الداكن وجسمها الممتلئ، كانتْ تضج بنظراتٍ مبهمة، تفتح في كوة رأسي علامات استفهام مضنية.

متروكٌ وحدي في نقطة منسية عند فتحة وادٍ، ينغلق على جبلين آجردين، غارق في ظل يفضح اضطرابي المتشنج، العتمة تغطي نصف جسدي، ويبقى النصف الآخر عائمًا في الوهم.

تتسع ملابسي، تحوي جسدي المتقلص، وريح تهبط من سفح الجبل بغموضٍ متداخل مع آخر اللَّيل حين يتشقق الفجر بصوت قذيفة تحمل أنفاس البارود.

تنافسني صديقتها على السرير المطلي برائحة العرق، والحسرات المكتومة، والحركات العنيفة، أبقى أنتظر ساعات حتى تفتح باب غرفة النوم لأشاهد وجهيهما الذابلين من التواصل المحموم، أستغرق في التحديق، أُحاول اكتشاف إشارة البدء عند زوجتي التي فاجأتني بطلبٍ عجيبٍ:

ـ يجب أن نقلب المعادلة.

ـ لا أفهم ما تطلبين.. ؟

ـ نتبادل الأدوار.

لم تكن العملية سهلة، فقد انطوتْ على وجعٍ مخزٍ بعدما تبدلتْ أحاسيسي، وصار استمتاعي معكوسًا ضمن ممارسة جوفاء.

في نقطة التقاء خفية، ينخفض بكثافة غموض رحلة مستبدة تعتمد على مسافات تخليثُ فيها عن طقس كنتُ أُمارسه بعنفوان.

في ليالي الشتاء تطول السهرات، يسكن الهواء الرطب أصداغي يتحسس بتناسق مؤلم كتلة الأحلام المتورمة؛ لتولّد رائحة طرية تطارد بقوة رذاذ تأججي المستمر، وحين تصل نتوء رأسي تحتفي معالم ذاكرتي بصلتها الغريبة، وأتصرف مثل المجانين، لا أفسح فيها للأسئلة بأنْ تحمل ألواح القضبان.

صار من الأمور المألوفة أنْ تتكرر حالات الهذيان، ولا شيء يميز الأيام التالية غير الممارسات المضنية، يطفو فيها التوتر، ألتفتُ حولي، أتلمس الأرض، تتردد أصوات مبهمة، الوادي المطروح تحت أقدام الجبلين، يحتفظ بتفاصيل كثيرة غارقة في ظلامٍ بعيد.

مللتُ من الانتظار، أُحاول ممارسة عادتي القديمة بصمتٍ، حركاتي اللاشعورية، أيقظتْ سكونًا ثقيلًا، قّز من وطأتها (شارلمان) فبرز شاهرًا سيفًا من جمرٍ، يطوق نصف وجهه بقبعة سوداء، والنصف الآخر تتقاسمه انفعالات صاخبة، ظل يدور بطريقة وحشية، صراخه يملأ الوادي، بقيتُ أبكي، بعدها ربتَ على ظهري، وطلب منّي أنْ أكف عن البكاء، ثم عاد إلى حالة الصفاء، فتكلّم بنبرة انهارتْ تحتها صخور الجبلين؛ لأنه يذكر الأشياء القديمة، ويردد أشعارًا ملتهبة.

تهب من جهة الغرب ريح خفيفة، تحمل معها ممارسات الخصوبة، تخلق في جسدي تجليًا، يحمل بصماتٍ تتشبث في الأرض، تدفعني للمضي إلى قمة الجبل الأيمن، حتى أنشر البذور أملًا في موسم رخاء.

آمال تخفي في نظراتها سرًا أو حاجة ملعونة، تُسقط بصرها تحت سرتي، أتظاهر بالاستغراق في التطلع إلى شاشة التليفزيون.

الأخبار تتراءى، النصف الثاني من جسدي، يدفعني للبحث عن نمطٍ متجدد لعلاقة سوداء، أحاول الاسترخاء، أحشد تفكيري في أمورٍ تبعد رغبتي الخفية عن ضجة الانهيار، تنتشر أسراب رمادية تبصق على سقفٍ، يتدفق حنين، يتمطى خدر لذيذ في ساقي؛ لأبقى بين اختيارين الرضوخ دون حسم، أو جر ذيول الخيبة.

دوائر النزول إلى حوض الشهوة، تجعلني شديد الحذر، وبالمقابل تتوسع أدوات الخوض يتخللها الارتباك، واضطراب يفضح نداءات تتساقط بانفجارٍ، أتحسسه بمرور الأيام شعورًا بالراحة، أعطاني دفعة غريزية لتلمس الأعذار لزوجتي حتى تغيب من البيت.

سمرة الجلد أغرتني بالهياج، سيطرتْ على عواطفي، واتفقنا على أنْ تبقى علاقتنا سرية، لا يمكن لأحد أنْ يطلع عليها.

عند الظهيرة تشتد الحرارة، أتذوق ملوحة جسدها المغطى باهتزازاتٍ مفزعة، أكتوي بنافذة حلم يجري مسافة، تفصلني عن الجبلين، توتر يفيق على لوعة تتباطأ بتمازج الريح حتى تستطيع ملامسة اختلاط الأصوات، عندئذٍ لا يستطيع أحد أنْ يسمع شيئًا.
تروض الرغبة في عالم الحجر على الشحة بتدخلٍ مضطرب، أستطيع فيها التأكيد لنفسي بهمسٍ يعبث بمجريات الأمور.

اكتسبتُ فرصًا كثيرة، اشترطتُ لعبة التردد حاملًا كثافة لونية تنفتح على حوادث كثيرة، الخوض برحلة شاقة تنطبق على وساوس لا

تطمئن، فهي طريقة أصل بها إلى حشرجةٍ تغص بعاداتٍ، تدمي تكرار الأفعال المتضاربة، يبقى عالقًا في الأذهان سخونة العوالم الخاصة، أو حين تلتقي الأعين؛ لتعلن مزاعم خفية.

أمضي في الطريق المعاكس، حيث الأسئلة تتبادل بتعاطفٍ تستبد به شجون مليئة بالخداع والخيانة، أغمض عيني، أستجمع سخريتي كخطين أسودين حيث تتشكل احتمالاتي، لم أكن أتصور أنَّ شيئًا مثل هذا يمكن أنْ يحدث فقد تغير سلوك زوجتي.

آمال صارتْ عندي جرأة تستبيح عواطف جياشة، تنحني عند سخرية المواقف المتبادلة حتى تصبح دبقًا يغزوني.

• • • •

أحيانًا أتمنى لي وحدي دون سائر الناس حبيبًا يتلهف للقُياي، الأمنيات تلهيني عن دوامة الفراغ، شعور يتوَّج بصمتٍ مطبق، فتزداد عندي كثافة النشوة حين ألمح طيفًا يمرُّ في خيالات رأسي، أشعر برطوبة تسري داخل عظامي، وتتسع في قفاي مثل قطعة قماش مبللة، يتظاهر أمامي التعب فيصيبني الإعياء.

تكاثف الوقت مع جسدي بوشائجٍ تمحو الفواصل، يلتصق محمومًا بأفكارٍ لا حصر لها، يرتاد ساحة الظن ارتياب، يسارع في الابتعاد.

في الساعة الثانية عشرة والنصف، استنفذتُ وقتًا ليس بالقصير في التطلع نحو التلفاز، أردتُ اصطياد لقطات لا حصر لها، تورطتُ بانهيارٍ مفزع لخيالاتٍ متأججة من صورٍ لا تنتهي، لكنْ ولا واحدة منها أعطتني لذة اللقاء.

أنام خالية البال، أجس خطوط الكف المكورة، يصبح عندي الخيال عادة يومية تنساب في أحداثٍ متلاحقة، أعوم بأجواءٍ تحلّق بلا انقطاع، تحسستُ جسدي الممزق بالأحلام عبر ضوء الغرفة الكابية، كنتُ معزولة في مجرى النسيان، وجع رأسي يلقي ظلاله على ممرات أفكاري المتشعبة.

ارتختْ بتباطؤٍ شرايين، طبعتْ حركاتها في قالبٍ مخملي، تشارك بحياءٍ صامت مدهش، يقترب من رسومٍ، توقفتْ عن الدوران؛ لتجسد عضلات جلجامش يصارع أنكيدو.

تنتشلني إيماءة المشاهد المثبتة بعناية على جدارٍ يحوي حافة الوجوم، يوصلني إلى همهمة البكاء، زعزعتْ مخاوفي أمنيات

تحتفظ ببريقٍ يطلّي جمجمتي، أظل أبحث عمَّن أحتمي به من مزاج يجلدني.

حكايات صغيرة تسهم في تحلُّل مسامات أفكاري؛ لتزهر أصص مرايا لم تعد تحوي صوري المتناثرة، أمد أناملي المتدثرة بالخدر أحسب أني أملك الحياة، تنمو داخل أحشاء الرغبة أنساق تتوافق مع دلالات تحولي نحو امتدادات تشرع بالنهوض لفك علاقاتي الجوهرية بإهمالٍ متعمد.

أبي أحسبه شبحًا لا يمكن حسم اكتسابه؛ لأنَّ بيئته تتحفز بتقاليدٍ غير محددة مع استحالة حصرها في مواقف ملائمة خصوصًا حين تداهمني نزعة روحانية، وأفكر بزيارة المراقد.

غطستُ شموع النذر في إخدود الشواهد الحجرية عند قاعدة الضريح، أمشي حافية حتى حافة القبر، أنحني، أحاول تأدية الصلاة، أشعربتوهجٍ هادىء، يفيض الخشوع، أحس هناك شيئًا يتحرك يغطي منظرًا جليلًا، عبر سنواتٍ لا تعد ولا تحصى صنع أناس ينتمون لعالمٍ زاخر بالألق ألواح الشواهد والقباب المتناثرة، أتقدم أصابعي باردة ويابسة، لا أستطيع الاستمرار بالمشي، لم أكن أعرف هذه اللحظة أنَّ الارتفاع يصب في الضريح العالي بإعجازٍ وتبجيلٍ.

تذكرتُ والدي لم يكن متدينًا، لكنَّ والدتي رغم نزقها، كانتْ متدينة دائمًا، تضع شموع النذر ليالي الجمع مع أوراق الآس، وصحن الحناء عند الطرف القصي من غرفة نومها تحت صورة كبيرة

للأمام (علي) ممسكًا سيفه المميز مكتوب عليه (لا فتى إلّا علي، ولا سيف إلّا ذو الفقار).

أذرف الدمع، يستكين داخلي خدر يسري وسط دمي، وطنين خفيف يتردد في أعماق أذني، شعرتُ بالتعب الشديد، اقتربتُ من الإعياء، تصاعد طعم مالح داخل فمي، ملأتْ صدري عبرة، خنقتْ بلعومي، وراودني شعور بالحنين، تشققتْ لحظة دفء، دبتْ قدمي، أمرُّ عبر سوط الضوء يصفع وجهي، أمضي نحو أسطوانة أسطورية، أتحسس ولادة كائن ينتج عن مصاهرة ماء الفرات بدمٍ مقدس، يورث نوافذ ملتفعة بصوت طبول تمتطي جوادًا أبيض.

في رخامة المذبح يضوع العطر، يذر نقاط مطر، لا تتعثر، مد يطغي على خيالاتٍ رملية، لم تبقَ سوى ضربات قلبي تنسلخ بتباهٍ وراء شرفات أعطتني وقتًا ينجب بهاء موجة منزلقة.

أقتفي خطى الحق بطواعيةٍ تبتكر تمردًا على أبي المستبد؛ لتخلق عندي أجناسًا متفاضلة.

الازدراء يتركني، يختار الإنطواء على نضح جرار متسمرة عند حافاتٍ هجينة من القلق والحسد، يوجد معايير منضبطة بسياقاتٍ تبرهن خلاصي من خطيئة أمي وأبي، صار سلوكي مدار حديث.

أتمسك بتقاليدٍ كبيرة توقظ موارا، يحدث حزمتي ضوء قويتين ترافقاني لكنهما لا تلتقيان في مكانٍ يستبين الاتجاه؛ لأنَّ الموضع الحقيقي عادةً ما يكون في خفاء موقع القلب، وهو لا يحتمل المناورة، أنتحب بعينين يقظتين، تستيقظ بعدها الدهشة بسخرية

مضطربة، تهدد احتفائي، أجفل من ضربة ساخرة تبدد تناغم الإدراك، تنطلق وراءها وجوه نسوة غارقات في التطلع، يساورني شعور بأنَّ الأشياء المحيطة بي أدوات لا تعرف الرحمة، رأيتُ خيالات تشدني للضجر، لستُ قادرة على حمل سيل الأفكار.

بعد قليل ستحين الساعة السابعة، أرى أمي تمرُّ من وراء النافذة المتسخة تحمل معها رائحة ترضي مظهرًا رماديًا باردًا يجمع بين ضربةٍ قاسية، وخربشةٍ هائجة على حائطٍ يرتمي في زاوية متراصة.

ينفتح شباك بيتنا على شجرة سرو قاتمة، ترافقني باضطرارٍ لا فرار منه مع أمتعتي في الخزانة الخشبية، أجمع الأشياء فيها قمصاني، صور الذكريات، أدوات الزينة ما تزال في قعر الصندوق.

يتسرب بين الدهشة والوعي رفض قاطع يتأقلم بحضور شبحي، تفيض العلامات، تسبب الفوضى، وتحتفي قبة الأسرار بوعي مبهم.

تتنكر حالات الأشياء لحدود المسموح، تصنع مفاهيم تدور في شذوذ الإصرار حتى أصل سفح التهمة.

يبرز وجه أمي مثل نسخٍ عتيقة فات أوانها، أمسح من ذاكرتي تحفة تذوي وبدلًا من أنْ أقتنص الفرصة، تتآلف مناهج سارية المفعول بقواعد تعكر صفو العلاقة بيننا، يبقى ترابطنا يتمتع بمثابرة ذات أبعاد خاصة، وأبقى أُمجد العزلة؛ لأفتتح تتابعًا، ينبض في غطاءٍ، يطبق على أبعادٍ منزوعة القوائم تتقوقع بفضولٍ مريبٍ.

وجهي مطفأ، ينسج لحظة إنصات لأجيب أفكاري، يأتيني انغمار يتحرك في مفاصل غرفتي بين طيات الصور المعلقة بأسلوبٍ يشي بتجانس بطيءٍ يغرق وسط مناخٍ يعيد الاكتشاف.
ربما يرسو الوقت؛ ليفتح ذهني برقة تعطيني إحساسا بالأمان، أحتضن بيدي غموضًا، يعانق نسقًا هندسيًا ملونًا بمئات النوافذ والشرفات المضاءة وبيوت متراصة، ومن هناك تتصاعد أزقة قديمة وفجوات كثيرة سدتْ بكتلٍ كونكريتية.

تنبعث من صوب المقهى أصوات رمي قطع الدومينو بقوة على المناضد، بعدها تلاشتْ الأصوات، صار صمتٌ مطبق.
بقيتُ واقفة في منتصف الطريق، أصغي إلى الأصوات البعيدة والقريبة، اعتادتْ عيناي المكان، فضاء مفتوح، أمعنتُ النظر في اللانهاية، أحاول الربط بين أفكاري، فأبصر نحو السماء كمَنْ يبحث عن النجوم.

لامستْ أنفاسي بمتعة مرتجفة صدى وطأة الهلوسة، تمطرني بغزارة تلتصق على سطح ذاكرتي مشاهد ترتشف أحلام اليقظة، تتهاوى وتتدفق، رغبتُ أنْ أضطجع على ظهري لمراقبة سقف الغرفة، التمدد يمنحني الهدوء، ومن ثمَّ تتوقف عيوني عن الدوران، فقد أطبقتُ أجفاني، لكنني لم أنم اللَّيلة، ألفتُ الظلام الدامس، هبطتُ سلالم معلقة في الوجه الخفي لتواريخٍ تبعث نوبات ساخرة ترافقني، تتبادل معي أسئلة التمني.

• • • •

في الممر الفارغ تدفعني لعنات ساكنة بصمتٍ، يعجز عن إيجاد فاصلة بين وهمٍ متسرب من شقٍّ، يراود شعورًا مبهمًا، وبين نافذةٍ تغطي الحزن بألمٍ، يُآلف إحساسًا تنحدر منه دمعة، تتعلق بتمتمة الحياة.
شبه مقفرة ملامح الحيرة، تتسع في أسمالي البالية، بلا اعتذارٍ تذوب في اعتراضات مساماتي.

يقرع الوخز رعب هرعي نحو نصف الوعي، الذي يحتمل الدوي الملعون، استمد لحظة تظهر دلالة الأشياء بحراجة تستقر في ابتسامة واهنة.

ينال التعب من رعدة الاكتئاب حين لامس ارتخاء عضلاتي الذاوية، البكاء يعطيني فرصة للتنفس بعمق دون انقطاع، يستيقظ الصراخ في لجة تكشف التطلع الأبله لاقتحام مخيلة الغضب، لما يتقاطر ببوحٍ متردد، يساوم فيه انزعاجي حين يلتقط قلقًا ينحني على أنفاسي، تنساب نظراتي بلا توقفٍ، تحمل ارتباكًا متزايدًا يرتجف تحت أزيز الرصاص، حيث يلوث أردية طمأنينتي المسلوبة.

قبل أنْ أدخل، تسلَّق الخوف هضبة اللعنة الماكثة في ثقب صدري، ينفض العجز دموع الحسرة، إذ لا أيادٍ تتلقف صمت الأنقاض، أو تمارس الوحشة لهاثها مع المجارف، أترك الغضون تستقبل الدموع المعربدة على سحنة تتشوه تحت وجع الارتجاف، تأكدتُ أخيرًا أنَّ كل شيءٍ على ما يرام، لكني منعتُ من الذهاب إلى مخزن

الأخشاب الذي يملكه أبي، بعدما أردتُ اكتشاف فحولتي الملوثة بين جدرانه.

يتخبط الإحباط بين فواصل الأيام الماضية باختناقٍ مجنون، يتقاسم معي اعتراضات شديدة الحيرة، تختلط مع رائحة تفزع نبرات صوتي الممزوج بالسخرية، تتهاوى كلمات مبهمة في قشعريرة القسوة حين يحيط بي نصفي المغمض مبتعدًا بتصاعدٍ مرتجفٍ إلى حافة الانهيار.

ذات مرة تسللتُ إلى (الخان) انتابتني وخزة في عضلة رقبتي المتشنجة، لم تكن النزهة سوى رؤية والدي منغمسًا في نهش لحم، يزيح جدار الدهشة نحو جزع الصدمة.

مسار يختل بحذرٍ، يحتفي بنوباتٍ مفاجئة، تضيء مسافات الحدس، بانزياح لا تتغير فيه فرضيات الانتهاك.

في الساعة التاسعة مساءً، يغلي دمي لفقداني شعور الارتياح بحضوره المتفجر باستغرابٍ، تزداد طقوس اضطرابي تناقضًا يقض مضجع السكينة.

يلامس نافذة التداعي شجار، أتقي به جاهدًا كلمات بذيئة تطلق دون توقف، حتى تقتنص فقاعة الإزعاج عن كيفية الهروب بتصميمٍ يتشاغل بانتباهٍ مفرط في احتمالات البقاء وحيدًا في العراء تحت وابل الذهول.

يساهم في خلط العوالم المتشظية، تبخر تفحصه الدقيق في سكون العلامات المضيئة، ينسل العجز بشهقةٍ تجثو على قشعريرة مبهمة،

تتصرف باحتجاجٍ مكتومٍ يمزق شبق السكوت، وأصبح عائمًا مثل أملٍ يُمَزْق بيدي العاريتين، توقفتْ نبضات الشعور؛ لتمنحني ضغوطًا تواجه منطقة فاصلة، تعم فيها فوضى عارمة.

في الصباح التالي، تحيَّن ولادة وعي يقاسي ببطء استيعاب غبار مشدود للصمم، يكتسي جسدي الناحل سطوة علاقة تختار ثنايا تتراكم بتفاعلٍ، يتنامى في ذهني المشوش بتياراتٍ تعبر الأجواء المحايدة إلى هلامي المتأجج تحت طيف افتراضي، يحمل سمة التوتر.

أظل أُجذف تعابير مسكونة بعناوين تتقطع، تساؤلات لا حصر لها، تنتفخ الأعصاب مكممة برغباتٍ تتقاسم أنفاسي المتوارثة أزمات (شهريار) المتشبث بخيالاته المهشمة.

- ماذا لو..؟

يختفي السؤال، يتلاشى التجهم حين يترجل الأختلاف بصيغة يتحملها باهتزازاتٍ متتالية، تتدفق معاني ترنو لشفقة تذوب في أشعة الشمس البازغة في نهار نصف غائم بتدفقٍ غريب يكتسي رداء المتعة.

يستعيد صورة تحوي هالة ترابط عائلي يطالعه بارتباكٍ يغطي جفاف شجونه، لم أعد أحتمل الخذلان، أواصل الذهاب إلى الخان تحت تضرع المرارة بارتجاج نظرات مريبة، ربما حاولتُ استعادة شقاوتي بعين نصف مفتوحة، تطالعني نوبة الحبو بلا جدوى، أمارس بخشية متمردة أعذارًا، لا يمكن تسويغها في إشعال لفافات

التبغ، بأمل امتلاك عذوبة النسيان، والهروب من جراحه إغماضة الأسى حين تغطي فسحة التراجع بزاوية خجلة من خفقانٍ، يختزل التردد بصمتٍ مهيبٍ.

تصادر أصابع الحزن يومي السابع، أبدو مشغولًا بهمومٍ تدور بنبوءاتٍ، تشخص بارتعاشٍ متحمس، يعبر إلى الجهة الآخرى في محاولة لفك تأزمي، خامرني إحساس بهيج، يتسم باللامسؤولية في الارتباط بسيدة أربعينية محنية الركبتين، صوتها الحاد يمزق براعم لزجة في سماء الحنجرة.

يرقد ماردٌ غير مألوفٍ في وجه أبي، نبرات صوته الجافة لا تهتم بوجود أحد، هذا الرجل الضخم عريض الكتفين، شعر رأسه قصير، ملامحه قاسية، ترتفع فوق أنفه الكبير المؤطر بنظارة طبية، عينين دقيقتين، يبقى يتأملني حتى تصبح نظراته مزعجة، سألني على نحوٍ مفاجئ:
- هل تتردد على الخان خلسة؟

اعتراني صمت مطبق، رغبتُ بالاختفاء أو الهروب بدلًا من البقاء متسمرًا بحذرٍ يطلّي وجهي المثلث، حاولتُ إيجاد أعذار واهية لكنَّ كذبي المفضوح تسرب عبر خيالي الجاف.

يهتاج بقوة صوت أبي، يأتي مضطربًا، يعلن استغراقه الأبدي في حادثة هروبه مع والدتي إلى الأهوار حين توقف بين مفترقين.

بعد انتصاف اللّيل تتبلد الأحاسيس، ويصبح بلا قدرة على التفكير، القارب المطلّي بلون الظلمة يتوقف مصغيًا بصمتٍ لموجات الماء

باعتيادٍ مريب، الجنوبي ذو الملامح الحادة يخاطب أبي المذهول:
ـ أمَّا إنْ تسكت الرضيع أو أُغرقه في الهور.

مع البكاء، يتصاعد شرخ في مشاعرهما، يضيع وسط أصوات زوارق الدوريات العسكرية التي تجوب المحيط بلا توقف.

حاولتْ أُمي إسكات أخي الرضيع، لكنَّ صراخه المبهم يزداد، مثيرًا حنق البلام حتى تتشوه معالم وجهه؛ ليقف منتصبًا عند مؤخرة قاربه معلنًا نفاذ صبره.

سحب البقاء، وعناصر الفرار جامحة تتبعثر بتبديد الوقت على مساحات تزدحم بطنين البعوض، إنه إدراك للمشاركة الوجدانية كراهية فطرية للحظات مناسبة لجعل الموت حكاية عابرة.

الطفل الصغير يرقد بنبضٍ غير معتاد بين ظلالٍ شاحبة، وعصا الدفع تستقر فوق رقبته الطرية، تحاول جعل حزن الأبوين مقبرة تحتفظ بمشاعر شخصية لطموحاتٍ تستغرق بتماسك يتحين الفرار، وتحرير نفسيهما من مشاهدٍ تثير الشفقة.

ذاكرته فخورة بالحكاية المتجذرة في همته الفاترة، ارتيابه الأعمى، جعلني أشمئز من ارتياد الخان، أحسستُ أنَّ حماقاتي لا تمنحني البهجة.

• • • •

لقد قضيتُ هذه الفترة في إعادة النظر بما جرى من أحداثٍ، لم أستطع إقناع نفسي، فثمَّة جوانب أخرى للأمر كان علي أنْ أوضحها، تمكنتُ من اكتساب شيئًا من الحس بنمط العلاقة التي بدتْ تنمو في مكانٍ، يحفزني بتوقيتٍ غير موفق، تعلمتُ في الأيام التالية كيف أكسب الود، وأجمع رواسب التردد؛ لأبدو في مأمنٍ من إحساسي الغريب، ربما للمرة الأولى التي استطعتُ فيها أنْ أرى وجهها ممزوجًا بالغبطة، رؤيتها سببتْ لي تبلور ابتهاج يستبد بي، لم أحسب له حسابًا كافيًا، لما تكون عليه حال آمال في ذلك الوقت من النهار، ربما ستتفق معي بالذهاب إلى أقرب كازينو في إحدى المناطق الراقية، تخبرني بتفاصيل متعددة عن طلاقها من زوجها، مشاكلها التي لا تنتهي مع أمها، لم أكن قادرًا على تأكيد رغبتي في الاستمرار بالاستماع إلى حديثها الذي لا ينتهي، توقفتْ عن الكلام بغتةً، وبدا عليها شيء من الارتباك، بعدها تصنعتُ بداية مثبطة جدًا، حاولتُ التخلُّص من لقائها.

مارستُ داخلي إنضاج مشاعر تدور في ردهات المساء حين يغلفني بفخامة، تنتهج طريقًا، يدعوني للاهتمام بمسائل أخرى منوعة، لكني بصورة عامة لا أرى سببًا حقيقيًا، يحول دون قيامي بالاتصال بها.

ما يحيط بي غدا مشاهد لا أعرفها، فعلمتُ أني جاوزتُ مناطق معروفة، سمعتُ أناسًا يصفون التلاشي الأخير لمرأى شعور ممزوجًا بقلقٍ، تحيط به هواجس غريبة، استدرتُ في طريقٍ ينحني باستبدادٍ، يتركني محلقًا بفضاءٍ يداهمني عنوة.

يختفي في أدغالٍ تمتد على جانبي درب ترابي، استمتاع لا يخطر على بالي، سمعتُ صوتًا ينادي من خلفي التفتُ، أشار رجل بيده إلى الأعلى، لم أستطع تمييز كلماته، رأيته يشير إلي بإيماءات مبهمة.

في هذه اللَّيلة لم أنعم بهدوءٍ، ما تبقى داخلي مشهد يمتاز باضطرارٍ صارخٍ، يكبح حس التذكُّر مع فتور حماستي، يبقى جهاز الهاتف يرنُّ بلا توقف، يشتد في نفسي اعتقاد يتنامى باستمرارٍ عند الموقع المعتاد تتكون فرصة سانحة وأردد:

- سأقوم بما يلزم.

يدهشني وابلُ النهار المشرق بشمس الصباح الباذخة، أُحرك مفتاح المذياع، تصدر حشرجة، ثم صوت يتلو القرآن.

في هذا المكان لم أكن متأكدًا مما يشير إليه الوقت، فقد أصبحتُ انطوائيًا على نحوٍ شديد، ولاشك أنَّ مزاجي يتقلَّب تحت تصرف لا يستقر، لكني ما أزال أرى هناك أكثر من تلميحٍ على اشتياق من حنين في أجزاءٍ معينة من ولعي المسفوح على غرفة النوم في الطابق الثاني المطلة على شباك المطبخ المربوط فوقه مفرغة الهواء الزرقاء.

سطوة الغموض تستمد موقفًا شبيهًا بوقارٍ يتمركز في تصرفات تعلّق حقيقة مهمة، أنَّ القيم المهنية لا تنكر مثلي العليا، حتمًا سأجد مَنْ يحاول تحليل الأفعال بلا جدوى، أخطائي الصغيرة في العمل لا أعتقد أني سأضع حدًا لها.

الحرب عادةً تأتي ببيانٍ يذاع عبر الأثير بعدها تصبح الأمور مختلفة، تظهر المشاكل المستعصية، أصبح مسكونًا بمقاطع مشربة تعبِّر عن معانٍ عامة، تسترجع العمليات العسكرية، وأصير رهن إشارات لا تحتمل البقاء لإحساس يتبدد.

مسحة الغبار تغطي نقطة التحول بين مهنتي صاحب مخزن للأخشاب وضرورة التطورات المتسارعة.

سأحاول اقتباس معيار يتفق مع دقة الذاكرة، إنه إعلان يتمتع بمستوى إنجازات تتجاوز سلطة العبث، والسعي وراء نهايات تكتسب صفات غير جازمة، تجعلني ألتزم الحذر، ولا يمكن نكران المسؤولية حين تقع النهاية، اضطررتُ للتوقف والاختباء خلف إحدى البنايات؛ لأنَّ طائرات العدو تغير على العاصمة، مصادفة تنبض بالحياة القابعة في اللامرئي، الإحساس بالرعب يصيبني بالخرس في حدود الاحتمالات.

تضاءلتْ حافات تنفصل جزئيًا من نظام يكمن تحت جرحٍ راكدٍ أصابه العطب، لحظات غريبة مرتْ، تتنكر خلالها صور مفزعة في شبكية عيني، توهج يقبع وسط دوي المدافع.

لون باهت يتبادل مع استنشاقي الهواء، سالتْ دمعة بلون الملح، رجعتُ خائب الأمل، سرتُ في شارعٍ فرعي، الناس يتجولون بلا هدفٍ محدد عالمهم عالم يتظاهر بالسكون، لكنَّ صرختي تخلَّتْ عني مع احتمال حدوث شيء في رأسي يجمع بين ظلمة دافئة وليل بارد، يثير الشكوك في تصوراتي.

يتوسع رسوخ صور مرعبة، تحوم حول قسوة بالغة، تتوغل كلمات قش الذاكرة، تفتش عن ألوانٍ رمادية، يتخللها لون أسود معلق في مكانٍ ما، يتأرجح إلى الوراء بفضاضة دون أيَّة كلمة تهوي من فوق، وأظل أبحث في زاوية مهملة عن متعة العثور على بصيص أمل، كنتُ أقطن في حي يقع غربي المدينة مثل فجوة في جدار آيل للسقوط، أتذكر أم عبدالزهرة التي تسكن في البيت المجاور، سيدة طيبة بحركاتها البطيئة، إنها بديل لا يتزحزح عن أمنا الطبيعية، هي كنوعٍ من النبات مثبت بالتربة يكره الحروب.

فكرة مؤنسة أنْ تجاور نقطة ذات بريق باهت محايد ساكن مثل طوق حجارة، أفقتُ مازال الزمن المضطرب ينبض فوق ألواحٍ تتراقص وتذوي، وتتلاشى في إغماءٍ شبيه بالألم الخافت.

هناك اختلال في فجوة العقل، تحمل تفكيري إلى عالم يعوزه الوضوح، مثل حيوان أميبي أتمدد فوق تربة جف عنها الوحل، مرضي الخاص يجعلني أعاني، أتوسد اضطجاع بغية الوصول إلى الحافة، أنتظر الطائرات تئز فوقي من جديد، تسعى للهبوط أو تقوم بدورة نصف مجنونة، أشارك فيها الارتفاعات السالكة بتعاقب أصوات المحركات الهادرة، تنتابني حماسة محرمة، ومقدسة كعلامات غير مألوفة في مثل هذه الظروف.

تحوم في الجو أشباح تتلاشى بهدوءٍ في اتجاه تيار يزحف فوق زمجرة مكائن تصدر صوتًا قويًا يمزقه دوي انفجارات متلاحقة.

تتسلّل الضوضاء في أخاديد الشوارع، والطرقات على امتداد نوافذ

تعكف بطقوسٍ تتعثر في استغراق حواجز البيوت الكابية تحت ضوء القمر في وهج فضي، يكسو خصر الظلام، يشمل أعماقًا تغمرها نقطة إدراك تتقدم ببطءٍ بحراجة تنتصب بيني وبين الأعشاب الطافية في مكانٍ لم ينظر إليه أحد.

تتقاطع أغصان فوق طبقة أفقية وسط أوراقٍ تتجاوز نبوءة اختلاف زمن لامتناهي يشعرني بالذنب والمسؤولية معًا، فأظل أبحث عن بداية الظلام، ينتابني خوف غريزي يعدو بسرعة مؤثرة، يتحسس اجتياز رهبة المكان، حاولتُ الإفصاح عن دافعٍ يخالف تلجلُج آمال التي تقول بأسوأ وسيلة وأكثرها ارتباكًا، وقد تجاوزتْ بألفاظٍ بذيئة انعكاس حجم المشاعر المتردية مع والدتها.

في الأمكنة التي نذهب إليها تغدو مزدحمة، وتكون رغبتي مزيجًا يترنح في جوٍ يفتقد الاحترام، وإحساس غريب بالخلود إلى النوم.

اختفى مشهد من مشاهد العالم حين تلقيتُ اللوم على تقصيري بالعلاقة معها، تبدو العلاقة مشوهة، ولا ينبغي ممارسة السذاجة، وزوجتي تعرف سمة أعماقي حين تتطلع بملابسي التي أرتديها.

الحزن امتداد خارجي، ينكر وجود المتعة في منهجية سوابق تشق طريقًا في مساحاتٍ شاسعةٍ من الصمت.

التصورات الخاطئة، تمنح اللمسات اضطرارًا مريرًا، وفي ضوء النهار أتغلب على مخاوفي، ويكون الجنون نمطًا يتحرك مثل حشرة تزحف بالتهام أشكال الهواء.

لم يكن يومًا حافلًا بالرضى، اكتسحتُ المجازفة لما زمجرتُ بقوة

جارفة عن مدى الغلطة التي اقترفتها، وتدعي بقسوة واعية أنها حامل، مرتْ خيبتي بانحطاط نزوة كئيبة، تجعل الحياة عذابًا وضياعًا للاشمئزاز، الهلع ينسجم مع الحدث، وتنبعث من نافذة جسدها صورة خضوع يترسب تحته غضب ينتشر أمامنا يحاكي وجهًا خفيًا ينظر خلسة للاحتقار، أشعر أني لوحة صنيعة هوس، يتذبذب بين مظاهر أفعال تعيد الوحشية بيقينٍ تام، وفهمٍ يرتقي لمعرفة أشياء ترتبط بالإدراك.

في أعماقي بئر يرتبط على نحوٍ جزئي بوجهة نظري المليئة بالمعاني، واللوم عند حدود الحنان والأمل المتشبث بدوائر ممتلئة بالهراء، تتنفس أحاسيس عائمة، ومتحجرة في جسد هامد تحت ظل صمت عينين واسعتين.

• • • •

في تلك الأيام كوَّنتُ صداقة حميمة، صلة تمطر استمتاعًا يضفي غموضًا يحمل معايير بيوتات مغلقة تطور صفات مختلفة.

ثمَّة سبيل سلكته مع صونكول، كنا ننتقل من موضوعٍ إلى آخر بعرضٍ مشوش، جرأة منهكة جعلتني أتقرب بتدنيس يحثني نحو الفتاة المتألقة.

أهملنا دراستنا، وبقينا تحت سماء الغرفة المنزوية نرتعش مثل جروين صغيرين، تحتم علينا التوقف حينما دخلتْ أمها حاملةً أقداح الشاي.

سرتْ أشكال غريبة تتقافز ظلال مجوفة بألوانٍ معتمة ومشعة، لم أرَ سوى يد أمها تصفعني بشدة بعدها حصلتْ مشادة عنيفة، أسمع صوتها يزحف باصطكاكٍ:

- ابنة شلتاغ ما تفعلينه مع ابنتي شيءٌ مخْزٍ.

وقفتْ صونكول بصمتٍ في الزاوية البعيدة، هبَّ هواءٌ حارٌ لامس حلول المساء الزاحف بوهنٍ يشيد طريقًا لنسمات هروبي في اجتياز أرضية حجرية مرصعة.

وجدتُ ريقي ناشفًا، انحنيتُ أمام الاضطرار، الصوت المسموع يطاردني:

- شيطانة.. حياسز.

حملتُ جسدي على قدمي الخائرتين تحت ثقل الصدمة، عثرتُ أمام عينها الغاضبة، استولتْ الضوضاء على كياني، غزتْ اللانهاية كومة عظامي، صورة السيدة ذات الشعر الأشيب تثقب حفرة جانب

رأسي، سمعتُ داخل أعماقي صوتًا يتحجر أحاسيس خيالاتي ما انفكتْ تنتصب بسلوكٍ مشينٍ يمنحني الانطفاء، أتذكر وجه صديقتي وردي اللون المبلل بالعرق والخوف، حاولتُ إصلاح وضعي حتى لا يبدو هناك توتر في ملامحي المقفرة بانزلاقِ مذنب، يستبطن مشاهد هابطة.

بعض الأحيان أتظاهر باللامبالاة، لكنَّ الهوس يتحول نمطًا يحوي مخاوفي، فيدفعني تحت ظلام غرفتي أناشد السرير بفضولٍ يقترب باضطرارٍ نحو حافة الجنون.

أرسلتْ لي صونكول رسالة أخبرتني بأنها أُجبرتْ على قبول خطبتها من سردار صديق والدها، فكرتُ حتمًا ستسحب كل ذرات جسدها وتوافيني، كنتُ مليئة بلحظات الانتصار، قدرتي على التفكير هيأتْ لي دليلًا يحث انتماءنا لصورٍ حسية مشدودة بتخفي جسدها تحت استمتاعٍ متباين يتكرر في منزلها الجديد.

من الصعب على سردار تقبل الفكرة، لكنه يحظى بامتياز العيش مع صونكول، فلم يستطع التخلّي، أو التوقف عن التأرجح الساخن عند سلام البهجة الراقصة فوقه.

متعته الهادئة مذعنة بحيرة غامضة حتى حدود تلاشي القسوة، يبقى ينتظر داخل غرفة الجلوس فيما نتقاسم النضوح بحركاتٍ آلية يغطيها غبار غير محدد المعالم يتوغل صمته الحزين.

تزحف نظراته بشراهة على مقاطع جسدي المتين، يتكور عالمه نحو مسعى نوبات تقبع بانتظار متأرجح، ثم يسحب عينيه عني،

ينظر إلى شيءٍ ما في الهواء.

أحيانًا كثيرة يذهب إلى زوجته الأولى، لم يكن سوى نتوء في طريقي للوصول إلى صونكول، رائحة الاستغراق تتلمس طريقها بحثًا عن سقفٍ ينزل ببطءٍ، يتدلى حول نقاط تتحسس حقائق تدور بفعلٍ وحشي، يعاني من طبيعة الجسد المشتعل بأنفاسٍ محترقة ونبضاتٍ متسارعة.

وجهها الوسيم، يرتدي عينيها المحدقتين لتجربة متنامية، ينم عن هدوءٍ واندفاعٍ على الجدران الصامتة، زوايا عوالم موصدة باسترخاءٍ موجع.

ابنه الوحيد يتردد باستمرارٍ، يضيف لي إحساسا يبدد خلايا عواطفي الجامحة، ينقل بعينيه صدمة تستنتج اعتراضات زوجة أبيه.

شاب في مقتبل العمر، شعر رأسه منسرح فوق أذنيه، بواكير شارب، ولحية بلونٍ أشقر، يدعى رزكار، كرهني بعمق بسبب وضعي الشاذ في بيت أبيه، لكني تباهيتُ بأحاسيسٍ تنتزع الطمأنينة من الهرم الاجتماعي.

هناك سرير يرسم خطًا متوازيًا مع إشارة لا تشوبها لمستْ أصابع تقترب، وتتباعد في مدٍ هستيري على جسدي المعلق بخطافٍ يسلخ وجهي المكسو بالسمنة.

لكنها كانتْ تنفر منه بمزاجٍ يحمل لعنة محبطة، ربما ملأتْ فراغات كراهيته بدلًا عني، فهي قريبة منِّي غاية القرب، يكفي هناك رجل

واحد في البيت يرضخ لإيواء زلتي اللعينة بدون اعتراض، فقد كان يتصرف بإدراكٍ.

أخذتْ الأمور توحي بتبدل سلوكنا، تودد سردار السري يفتح خطوطًا لاحتمالات متعددة.

أستطيع لمس تعاطفه، وخذلان قلبي المنتفخ بهيجان متكرر، أجلس في الجانب الآخر مفصولة عن تعقيدات شاقة، ألمح افتراضات مرتبة بتجدد التعارف، يغض الطرف عن آفاق رفقتي لزوجته الطرية.

إيحاءات تتقارب مع مكنونات توقعني في فخه، تحت رموشه الطويلة وشاربه الكث، نظرة عميقة تملأ الجو بالتفاهم، يرتفع ذقنه المدور، ينهض، يفصلني عنه حاجز مقوس، نيران تندلع، بدني المترع شوقًا يبذل جهدًا غير اعتيادي لوقف انزياحي أمام سطوته، لم أسمح له بالاقتراب، ظهرتْ من وراء الحاجز صونكول، أحستْ باتقاد شعورنا وقوانين اللُعبة تخرق بمهانة.

خيط يائس ومتعثر يتسلل بيننا يوشك بتهديد رباطنا، لكنها فجأة بدتْ إنسانة أخرى برباطة جأش قفزتْ على التوتر، وأشاعتْ المرح.

يبدو أنها تخلَّتْ عن غيرتها، أخبرتني بإذعانها لفكرة تدور في رأسها بأنْ تمنحني لزوجها حينما انفك اشتباكنا تركتني عند حدود الرغبة وخرجتْ؛ ليدخل بعدها مضطربًا في جحيم تصوراتي الخاطئة قبل أنْ يتغلب على مخاوفه، حولته إلى آلة تمارس نهاية ترتدي أفق الممكن.

لم تستمر لحظات الاستجابة طويلًا، وتأكيد القدرة الرجولية ترتخي

مع نمط الإذعان في الذهاب إلى جبهات القتال.

الحرب المستعرة تهدد بضياع الحرية، وتكتم أنفاس التبرير، يتهدد التكوين تحت انسجام مفخخ يزحف ببطء، يحتوي حزنًا لزجًا يسترخي على وجه قلقي، تمَّ استدعاء صونكول إلى المنظمة الحزبية، حينما عادتْ بدتْ حالتها متوترة بشدة، عند الأماكن الحاشدة تغطي العقارات المنتظمة أضوية قذرة، زوج غائب، زوجة تنتظر عشيقة تخفي رأسها بوجعٍ.

أحسستُ أنَّ مرضًا يسري في بدني، ساقاي ترتعشان لكي أصل جرف معاناة صديقتي الحميمة، سعيتُ لاستيعاب ما تقوله عن طريق مسامات جلدي، في المرة القادمة حضر ممثل المنظمة إلى البيت بدا بشوشًا، حمل كلامه فخامة عارية حتى يجعل صونكول ترضخ له، مضتْ برهبة إلى غرفة نومها تبعها بثقة عالية مبتسمًا بوجه الهواء الذي ملأ أفواه الممرات والغرف، حيث المساء يضع بصماته، تردد داخلي عواء مخيف ينطق بارتباكٍ:
ـ من الأفضل أنْ يفعل ذلك.

• • • •

إفصاح مزري، يكشف رصد يرفض البحث عن شعوري المرتعش تحت رغبة مفجعة مشيثْ دروبًا، هاجرتْ مخيلتي بلا ملامح.
ظلَّ صدأ الذهول يسخر من عصف التيه حين داعب جدب صور توالتْ ببطءٍ، تظهر من دخانٍ يتسرب متموجًا تحت سماءٍ تنفلت من قبضة تستعير ألوان، تقترف امتعاض التلصص لفخاخ محكمة الإغلاق تهب قبل الصفير.

الحلم يذكرني بضوءٍ يلمُّ حراشف تقفز نحو تناسل يفيض عريًا، أطيل المكوث، أتعرف على عائلةٍ من الوشاة ـ مغدور أعد أخطائي التي تقتنص عطرًا يبلّل هواء الصدفة ـ تكتمل الفراغات تحت جبهتي، ويطفو صوت في الفضاء:
ـ أما زلتَ تحلم..؟

الشمس تنفذ فوق جثة الأشياء، تتمدد بين رفوفٍ طويلة، تحوي كتب وأريكة ضخمة وضعتْ عند باب الحمام، يرتج المشهد بساقين، تعيد ترتيب الضوء بملمسٍ يشعل احتراف الأعضاء، تلوح دون تأويل لنمط الصمت العابر خلف نداء:
ـ انهض.

رائحة القسوة تطبق على أسوار الأحاسيس، بريء من ذنبٍ يطوقني، أتمعن الفوضى، أرسم انحناءة أماكن تحوي لغز الطابوق، أرغب بالعودة إلى نقطة طافية تجمع خواص زمن يحكي تماسك حياة، تجرب وعي يلتصق بالضوء يسيران معًا، يتجذر فيهما حزن شأن كل الأحزان التي مرتْ، وبقيتْ عالقة فوق مذبح الذاكرة،

استيقظتُ لم تتغير الحقيقة ـ الحياة سقف لا محدود ـ نظرتُ نظرة يائسة، مشيتُ صوب الباب بقدمين متهالكتين حاملًا صولجان الظلام، أتلف نقوشًا، ألفتُ طقوسًا دقيقة الرموز، حاولتُ مطاردة حشود الوعي المتدفقة بملء إرادة الظلال، لكنَّ إنسانًا غريبًا وثب نحو خطوط السير من جهتي الشرق والغرب، فلم أكن قادرًا على التفكير بسبب توهج الدخان، ورغوة الخريف المنبثة في عروق السماء.

سحبتُ قوس جسدي بمتعةٍ مضطربة منتظرًا أنْ تبرز لمسة التواءات المنازل بانحدارٍ بسيطٍ صوب جهة اليمين، الطرق مزدحمة ومسدودة، والمعالم المطوقة تستنفذ قوتي../ رحتُ أبحث عن حريتي المفقودة/ قلبي يدق دقات مسموعة/ هناك رجال الأمن/ اهتزتْ في رأسي إشارة واهية، قال أحدهم:

ـ أقفل الباب.

هذا أول لقاء لي مع الخوف، شعرتُ بالبرد، تكومتُ مرتجفًا، انطفأ نور معلق وسط عظامي، حامتْ بقعة سوداء، عانيتُ من نوبة مرض جعلتني أغمغم، ارتج شبح يصرخ:

ـ لِمَ قفلتَ الباب؟

تلاشتْ بقعتان سوداوان في تأملاتي الغامضة، مزيج من الأمل والإحباط يتنافسان تحت بشرتي المعتمة.

انتصبتُ بهزة عنيفة، حرك المحقق وجهه المتغضن، ظهرتْ تجعدات ونتوءات، أسنان تصطك، تحركتْ في الغرفة دوائر

صغيرة تصنع ظلالًا متحركة على الجدران، أتجه نحوالنافذة، وبدا لي طويلًا، استدار ويده تضغط على العصى الكهربائية، أحاطني بغموضٍ وتعذيبٍ مستمرٍ، أغرقني في دوافع مخيفة، ينبغي تحملها ليلة إثر ليلة/ أفتقر إلى الحرية التي سلبتْ جسدي/ أستحضر تضاريس هواجسي المريضة، لا أتذكر متى أو أين تتجلى وحشية الجلاد، بحثتُ عن نصف تفسير لرهبة تتجه صوبي أراها تلتهمني بقوة، بدأتُ أدرك العالم الآخر، سلوك يصغي للضحكات البذيئة، إحساس يسد تجاعيد نقص ملامح متجهمة.

الاتجاهات السائدة تتحرك في أرجاء الغرفة، تجعلني أبحث عن مخلوقاتٍ حية تتنفس عطر الهواء، ظلّلتُ أبحث عن نموذجٍ حي، ملتُ إلى الأمام أمسكتُ سعالي، نظرتُ بعينٍ وامضةٍ، الوجوه المتألقة تجلس على نحوٍ دائري بيني وبينهم فجوة، تجعلني أدب مثل فأرة.

ثمَّة توهج يحكم المظاهر المنبثة على الجدار، مسار خط سريع يختصر تجاويف شكل مؤذي، وحوله ينفتح ضوء ينتهي بانكسارٍ عند برعمٍ صغير، يرفع كفه في سماءٍ تتوازن بخفقة هشاشة عظامي.

رأيتُ وجوهًا تعقد حواجبها تعبيرًا عن مضامين تفسد تعاليم القناعة، أمكث معلقًا بين صورتين تمرُّ مثل موجة محترقة تجعلني أوشك على الجنون.

- لكنَّ يا أستاذ.

يتخلى جزء من نفسي، جزء مشوش بصاقٍ مصمم على الكبت له صلة بالقذارة السائدة، قفزتْ مشاهد تزاول مواهب، تستحضر صور الغرور، أصبحتُ ضائعًا، لم أستطع تذكر صونكول، شعرتُ أنَّ هناك حياة أخرى تولد في أعماقي، من حولي أشياء تتفق بهمة في غرفٍ ينفجر فيها وجود يغالي بالحزن.

تسلَّلتْ خلسة أجنحة الخيال، تكشف عن حلمٍ يجمعني مع آمال عشيقتي الوقحة، تبدو مشوشة لكنها تتجرد من الخوف تمسك بيدي حتى لا أهرب من عواطفها، تأخذني في طريقٍ مرتفعٍ، وجهها يخفي فضيحة مخفية، أرتاب من وجودي معها، ستعود صونكول غير أنها تحاصرني في مثلثٍ مظلمٍ، يتدلى منه وحش يثأر من العوائق.

المتعة التي أحصل عليها تأتيني من شخصٍ ثالث، يلتمس المغفرة من سكينٍ تطعن بتعثرٍ واضح، أهرب تواجهني أداة التعذيب، يمتد خط فاصل يمثّل مقياسًا في ذهني، ينتقل باتجاهي رأس مكشوف يطير في الريح.

فوضى في عقلي، فقدتُ القدرة على التركيز، ممزق تحت وابل الدمار الذي تخلّفه الحرب، أبدو نموذجًا لعالمٍ صغيرٍ يتقاسمه الموت والعذاب، الفراق يوصلني إلى الهروب، أُدمن الدمار والشهوة على نحوٍ غير مألوف.

الغرفة الحقيقية قذرة، وراء الكرسي القريب وفوقه صورة الرئيس، الكآبة تشع من الأوراق المتروكة فوق المنضدة ذات الأرجل

المستقيمة، وقد التحفتُ ببطانية عسكرية قاتمة اللون، لم أتأكد من نبرات الصوت، كان بلا هوية يتماسك بانسجامٍ مع الأوداج المنتفخة للرأس الدقيق ذو الشارب الغليظ، أستمع إلى الضجة تعبر لجام التشوش لا تكبحها أعصاب منهارة، أعجز من رفع عينين متوسلتين.

قبضات تنهال من جميع الجهات، تدور داخلي صرخة مكتومة، ضوء خافت يعترض تعثر مفاصل الأصابع حين تسقط على عظام الوجنة.

• • • •

أتملَّل بين إحساسٍ لا يشعرني بيقينٍ، ومظهرٍ يتجلى بتعثر لهوس اللوم، يتكئ اعتيادي المثبت على طوقٍ، يمارس التصاق فوق الوحدة، ينبأ عن آخر فرصة مكبوتة استدعتْ اندماجًا يفيض هدوءًا، عثرتُ على متعةٍ تتضخم بارتفاعٍ يثير اهتزازًا يوحي بإشارة تبادل غريزي، تحفزتُ بحذر طحالب وجع لا تجد لنفسها مكانًا للمرور بين لغطٍ لا يخفت، أزيز حشرة تحوم بلا توقف، الجفوة تتصاعد بيني وبينه، تتيبس مفاصل الحنق الملسوع.

يزداد نفوري منه، أسمع بقايا ضحكات مكتومة تأتي مع الضوء المنتشر في الرُّدهة المطلية بلونٍ أزرق خافت، أشاهد قطرات العرق تنزل على رقبته السمراء، يمسحها بمنديلٍ ورقي، يبدو عليه ارتعاش ظاهر، تخرج من فمه حشرجة مؤلمة، ألمح سلامياته المتخشبة حين عاود الكلام بلهجةٍ هادئة يشوبها الاضطراب، هناك اختلال في اللامبالاة التي أبديها، خصلات شعري المتدلية فوق جبهتي تبقيني جالسةً في المكان المألوف شاحبةً تتجاوزني رؤياي، قد أختفي داخل طبقة أفقية مملوءة بأوراقٍ فضية تتوسطها شجرة تنمو بشراسة لا تعرف الاستسلام،أشعر أني امرأة تنتصب بين زمنٍ لامتناهي يعدو بلا غرابة في خيالٍ يزمجر، وآخر لا أتكيف معه.

تبدلتْ الأشياء، نحن واقفون، هو يحمل وعاء خيبته في مناطق محرمة بتدنيسٍ، يجعلني أتلاشى أمامه مثل شبحٍ في اتجاه الضوء، يضرب بشدة قدمه على الأرض تشتد كثافة المشهد، تأتي بعدها الريح تبعثرنا، انتشرتْ في الهواء الجاف رائحة الابتعاد، لكنه يبقى يهمس في أذني.

قامته العالية تزحف فوق دوي بهجتنا، يتبجح بالجرأة، أقفز مثل حيوانٍ بري، أجوب الأطراف المعزولة، شخص ما يعترض طريقي، يجعلني أتسلل صوب الأدغال.

عالمي المشوش قُبة نصفها ذكريات تسفح، أخاديد تشرع دائمًا بالبكاء، النصف الثاني ضوء باهت يتسلّق حافات المغامرة.
محاصرة أبحث عن نوافذ مضاءة تدلني على الطريق، حواجز الابتهاج خالية من سر الهدوء، لاح لي وجهه خاليًا من التعبير في وسعه الحاق الأذى بي لكني مكسوة بالاستغراق، تغمرني نكهة تعابير تثير عندي أرق الضحية، أتساءل:
ـ أي طريقٍ سرتُ؟

مررتُ بين أجسادٍ هشة تؤمن بالموت والحداد، أنحني فوق علاماتٍ تعوم بلا خطيئة، إحساس مخادع يدفعني؛ لأضع سبابتي على متعةٍ تنطفأ تحت وهج رائحة الشم، أصنع دوائر متشظية في رغوة عالم يجثم تحت سماءٍ زرقاء، تتشابك شرائح الزهو تحيل نقاء الألم المستبد إلى ارتخاءٍ، أشاهد نفسي محشورة في نقاط التقاء ملونة، أبدأ بعدها بالميلان، أجر خلفي حجب تتمايل، كنتُ ألهث عابرةً نحو التفاتة هادئة.

نعود أدراجنا إلى حجرتنا، اضطجعنا جنبًا إلى جنب، روى لي بعض الأقاصيص وسط مشاعر معشوشبة تتسلّق جرف أنفاسنا.
تكبر احتمالات بعض الأخطاء، هرعنا نحو نبضات قلبينا صامتين خائفين، تنبض الريح في اتجاه المجهول، ثمَّة رجل آخر ينتظر موعدي.

أتسلل صوب الأدغال، يلوح طريق تتوارى بين ثناياته أشباحًا تتجول ببطءٍ، بأنَّ خيطًا يربطني إلى نهايتين، فكرتُ بإنهاء علاقتي الزوجية؛ لأنَّ حجم مشاعري المتضاربة ليستْ مقياسًا لغطرسةٍ تتمعن باسترسالٍ مهين.. في انتظار فرصة لموعدٍ يتصاعد منه توهج محموم، يجبرني على فك ارتباطي الأول، يجعلني أترك كل شيءٍ مكانه؛ لأختفي وراء نهاية توفر لي مكانًا مجوفًا.

يستطيع شريكي أنْ يلقي اللوم على جموحي النهم، لكني لا أصبر على فراق سردار الذي علمني الكثير، أحيانًا أراه يسبب لي الحمى وأحيانًا أخرى يكون دواءً لدائي، أحسه فضاءً مليئًا بمشاهد تتشخص في خيالاتي.

تنتابني نوبة إحباط تسلب إشراقة اللقاء، أكتوي عندها بمخالب الإثارة، كنتُ حرة لأنه اختياري، لكنَّ الإخفاق ينتشر مثل سرب جراد في أعماقي اللامرئية، القرار الذي اتخذته بملء إرادتي استثناء خارج أنماط المألوف.

حياتنا المشتركة حشد صاخب لمشاعر تعتريها البرودة بسبب وطأة الحرب، وتوافقه الموحش مع زوجتيه خصوصًا زوجته الثانية التي تعاني الطلق، شاركتُ الجميع متعة الولادة بعربدةٍ منهكة، وزفرة تخفي بين طياتها حسرة.

أمي تحمل تصوراتها اليائسة عن حالتي الملتوية، شاهدتُ وجهها يتغير ويتبدل، حكتْ أنفها، سالتْ دموعها بلون الماء، اختفى الوجه الآخر لمبالاتي.

حاولتُ الابتعاد عن مظاهر الإغواء لكنَّ جرس الهاتف رنَّ، إنه سردار يطلبني، اهتز نخاعي على جرحٍ لم يتفجر.

الماضي يترك أجنحة تتوارث طقوسي المحنطة، قلبي المنهك يحدثني، نحن الاثنان من طينة واحدة، نعيش في عالمين متوازيين يكمل أحدهما الآخر.
الجزء المعتم داخلي يشع، يسوده قانون طوطم، عاد للظهور من جديد، إنه يعني التخلّي عن الألم الأول الذي يحتويني.

أحاول الحصول على شيئين مختلفين هدوء بارد، واحتراق يبشر بالتغيير، احتجتُ إلى درسٍ يعلمني كيف أعيش بلا هاجس يلطخ وجهي المخطىء، تصورتُ أشكالًا غريبة، دهاليز تتحول إلى منزلقاتٍ رقيقة، اضطراب أصابعي التي تتفكك لا أستطيع تحسس الطريق بها، القمل يغزو سروالي الداخلي، صوتي المبحوح يختفي، فكين يقضمان نبتة ضخمة تنبض بسرعة.

انتابتني رهبة، تشعرني بالخواء عندما تتاح لي فرصة المشي في اتجاهٍ واحد، أستدعي تفاصيل محددة، أتطلع إلى السماء، تمنيتُ لو أنها تمطر، كنتُ أبذل جهدًا كبيرًا للاستحواذ عليه، بعد قليل هدأتُ، عدتُ إلى السرير، غطيتُ جسدي بالملاءة من الرأس حتى القدمين، سمعتُ دقاتٍ لا تتوقف صوت مفتاح في قفل.

زوجي ينادي، أخرجتُ رأسي من تحت الغطاء، صرتُ عربة يجرها حصان، أخطأتُ كثيرًا، شعرتُ بالبرودة، إحساس بالخوف يضج في مقبض الرجفة التي تعتريني.

منهمكة في أفكارٍ تتوالد وراء حواجزٍ، تغمرها صور عشوائية لعلَّ غريزة البقاء، التي أحيانًا تتسم بسمة الغباء حين تبقيني أنتظر وقوع الكوارث.

في بيت سردار المحاصر، رغم تعلقي به أكون نصف نائمة، يهز خدر غفوتي توتر يصفع السكينة.
اختفى شحوب ينمو منزلقًا من النافذة الغارقة بالضوء إلى أرجاء البيت المستيقظ وسط ظلالٍ، تخطو معي فوق أشكالٍ، تنغلق حول رقبتي؛ لتلج عيني حتى نتنفس معًا.
ارتجفتْ نقطة تضغط على مكانٍ، يمكث في حلكة مغسولة بشفاهٍ، انتصاف الوقت يرتقي، اختناق يتنامى بانفعالٍ.

والدة صونكول تصفعني، شرر يقدح مثل برقٍ يضيء داخلي المهشم، صوت زجاج يتكسر، الشمس تتلاشى شاحبةً في مسامات جسدي، تغلق جذوري من الكاحل إلى رقبتي باتجاه مركز لمسة من احتراق.

أعثر في رماد خطيئتي، شعرتُ بعطشٍ شديدٍ، مشيتُ متحاشية غضبها المتأجج، تأرجحتُ متدلية نحو صوتها الذي يطاردني، ضعفتْ مقاومتي، خسرتُ صداقتي المتينة، خطأ ما حدث سلب راحتي، أستحضر هواجسي الراعشة التي جفتْ على ثقوب التلميح، رسمتُ رسمًا بيانيًا أزيح فيه رغباتي الغريزية، التي أدمنتْ السعي في دائرة مغلقة، أتحول فيها إلى بركة تنزف عرقًا ووجعًا.

هزيمة تستدعي دبيب الاستلقاء، والهرب حتى أتنكر للحقيقة، حدس

يتفادى أحجار القسوة؛ لأني أكتم صرخةً مطعونةً تتجه لأبعد من صدمة الاكتشاف.

الزوايا الصغيرة تكفيني؛ لأتحرك نحو نزوة تسبح في بقعٍ متوازية نعاني منها معًا، نضح صاخب يبلّل وخز مشاعرنا المثارة، أقايض زحفًا يخطو برقة مع أقواسٍ تقضم لزوجة وميضٍ يشتعل في رأسي؛ لأبدو مثل حيوانٍ رخوي.

• • • •

يسقط ظلّي خارج عظامي باستطالاتٍ، تتخثر معصوبة بأبخرة تتبادل أدوار الإهمال، أبذل جهدًا شاقًا للوصول إلى الموقع المتقدِّم، وحولي تتواصل الأتربة بلا انقطاع، شعَّب مرجانية تطفو في المناطق الرخوة من جسدي، تتقمص هلام ذاكرتي، يغلي في جوف المعدة بخار يشبه العتمة، ينقلب الفراغ بصرامة، يندفع القيء نحو سقيفة الرأس، يسلبني رئتي، ويتوقف النبض.

فاحتْ الأرض الساخنة بلوعة المكان، حيث الألواح الطباشيرية تمتد بتواءم محزن مع أشعة الشمس العمودية؛ لتؤثث الأرجاء المطمورة بلهبٍ منفجرٍ من ألسنة الهواء الحار، إحساس النهاية ينتفخ داخل صدري مثل بالونٍ يوشك على الفرقعة، كل خفقة تضغط على ضلوعي كأنها ضربة طبل، يمضي مع صوت الزمن العابر بقسوة.

في الشتاء الماضي، عرف الجميع أنه سيتم سوقي لأداء الخدمة الإلزامية.. ارتديتُ بدلتي المفضلة، خطوتُ خارج نوافذي، شمس آذار منحتني سطوة لامعة، أُحاول بها إطفاء قلقي، يختبىء في رواق الذعر وجه حبيبتي، التي ستصبح زوجتي بعد شهر أيلول قبل ذهابي لساحات التدريب والقتال.

تنزلق مواطن محجوزة لمواعيد لا حصر لها من الصعب تصوُّر الأيام التي تمرُّ بلا رائحة أنفاسها، يوم بعد يومٍ ترتدي رئتي عبق الهواء، الذي تحركه باستعراض خصلات شعرها المتناثرة.

في شهر تموز، قررتُ التخلّي عن فكرة الزواج بعد أيلول؛ لأني

كنتُ أحتاجها باستمرارٍ، عرفتُ أني أمتلك شجاعة راسخة في مواجهة التحديات، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان عند آخر موعد لنا، كنتُ مندفعًا مثل شوكة حادة أغرزها بهمة، وأعثر بعدها على حافة الخوف.

مضتْ أربع ليالٍ، وهي تطاردني، أردتُ أنْ تتركني وحيدًا، في الساعة الحادية عشر من صباح الثلاثاء واجهتني، ثمَّة ضوء يخترق أوراق شجرة اليوكالبتوس، التي نقف تحتها، فيلقي بقعًا ضوئية على وجهينا، وتحت ذراعي وصدري ظلتْ راسخة في وقوفها تتطلع بوجومٍ شدتني بسؤالها: لماذا هربتَ..؟

يأتي صوتها من داخل عروقي النافرة، اقتربتْ منِّي أكثر، ارتجتْ بقع كونية، فُتِحَتْ مزاليج تنعطف بتعنتٍ أخرق سماء الحيرة، تهفو على ظلال ساطور يهوي بلا رحمة، أسمع صوت بكائها، اختفى الوجه، تأرجحتْ أصابعي على ملوحة دمع ثقيل، بقيتُ ساكنًا، أغلقتُ عيني، هبط الضوء ممزوجًا بلوعةٍ تنتزع بقايا حلم يلهث رغمًا عنه.

تنحسر رشقة ريح؛ لتخرجني نحو شفة الحزن المتبرعم في ركام احتراق ليل الأرق، أقضم بوحًا يسري مبتعدًا إلى خاطر يحوي أنامل نحيفة، وعيونًا ملونةً تقفز بولهٍ مجنونٍ على شفاه حمراء.

يستمر الانحسار؛ ليحدِث نشوءًا وارتباطًا يوثق نمطًا من العُرِّفِ نسميه (الشرف)، تآكلتْ عواطفي بجفافٍ يشترط صفاء ذابل يتأمل مناطق لاتغوي.

تتفشى الأحاسيس والغرائز على ثيابي، تمتص الارتعاش المتوارى خلف هواجس تيارات تتوالى، تحمل وميض نجمة توثق تاريخ منابع مدينة بدوية.

ينطوي اختبار الرغبة الجانحة على إشكالاتٍ لا تستوعب رواج التضرع، همهمات تنهض بأسلوبٍ يتضوع بفضاضة الاستعارة، يشكّل بعمق حكايات يسردها محبون؛ لتلبية نداء الفشل بين حربٍ مستعرة وحبٍّ يذهب أدراج الرياح، يحوي دلالة الذنب تغلُّب عليه معايير باذخة لكنها تبقى زوجتي، ومسكونة بحبٍّ فاسد تتباين عواطفها لتبدو سيدة غامضة.

سكنتْ نظراتي، ما زالتْ الرابية بعيدة، الشمس تتجه نحو المغيب، أسحب قدمي الخائرتين مشوشًا، تتناوب صور الازدراء في نسيجٍ تنسل منه رتابة المكان، وفي فروة رأسي تنمو ملامح لونٍ تكرر مرارًا، شهوة تستنسخ انشطار توازني لإستجلاءٍ مبهم عن معالم وعرة لطريقٍ لا ينتهي أبدًا.

كل الاتجاهات تعاكس سخريتي التي تتحداني بإتقانٍ، تساءلتُ:
ـ كيف يمكن أنْ أكون حيًّا وسط نجيعٍ يفتعل مديات متناحرة؟

أفتتح سلسلة حقائق تعوي في بركة مياه راكدة لا يميزها الوضوح؛ لأنها تشيع في القلب قسوة متضاربة.
ثمَّة تلميح يبتز خواطري القاتمة، تتحرك مثل قدرة الإيذاء في زمنٍ يختصر الحياة على مساحة القدمين.
يشرع التحوُّل في أشباه الأصنام الذين أدمنوا الخراب، عندها أُعاني

ومضة تستعر في سطوة لا تفسر استهجان الانحدار، تضم قيَّمًا تتحلَّل بمجرد لمسة قلم أخرق، يتقن صنعة الخوض في تفاصيل تحكي وجعًا، يتسرب من أخطاءٍ لا نحسبها، نتعرى تحت مشاهدها، نسخ مشوشة تحتاج لاستحضار الإنطواء؛ ليرسي قوالب تتقدَّم على نحوٍ فضفاض تعبيرًا عن إشاراتٍ، تشيع اقتباسًا هرميًا بالموت المجاني.

انتابتني رعشة محببة، أثارتْ عواطفي، مثلَّتْ تفسيرًا حاذقًا لتلافي استحضارات تنمو في وريد نزوعي للهرب منها، تشوهتْ مشاعري في محاكاة احتواء قواعد اللُعبة، لم تظهر جوانب مهمة للعلاقة من خلال درجات نسبية، تتقطع في أفكاري المتداعية.

حالة مضنية مبالغ فيها لا تعترف بعبث الأقدار ما بين طيش العشق، ومرثاة الأعراف تتشكَّل تقاليد، تتجشأ استعارات تعكس تلوُّن مأساة الذروة.

اعتادتْ جثتي السعي لفك رموز منحرفة، يدعي (فائز حسون) حرصه عليّ، ويسلِّم تقاريره لشعبة الاستخبارات.

مع تلك الغيلان، تبقى الزوجة محاصرة باغتصاب فرضية الأصلح، تتلقى الضربات باندماجٍ غريبٍ لا صلة له بالقيم الأخلاقية، وتبني في براري الحراجة مؤشر السخرية، أصبحتُ موضع ريبة وفق معايير مخصوصة، تتضمن بيانات لا تحمل تطمين راسخ، كل الفاعليات تركّز بانتباهٍ على احتياجات تحوذ تدوينًا لا يتقيد بقواعد.

كتب في أوراقه (نهض اليوم/ صلى الفجر/ في العاشرة أطلق نكتة مسمومة/ تمنى فيها لو يتقمص عزرائيل ساعة واحدة).

شحنة متفجرة لا تلتزم بالأعراف التقليدية، تبعث شررًا يشتعل في حضارة تتضخم في مداراتٍ، تحوي شقوقًا بداخلها دمى متحركة تفترق في ضوء النهار، وتلتقي مع كائنات العالم السفلي في منظومة اللَّيل بأساليب بدائية لا تتوافق مع ثنائية الإدراك الحسي، والتصوُّر لاقتراحها الإثارة الصاعقة.

مازلتُ عائمًا، تمنحني الضوضاء والفوضى لمعانًا، يتبع أذيالًا متباينة لظلِّ أشخاص مختلفين، في زمن الاحتلال اختبرتْ زوجتي إتقانها للغة الإنجليزية؛ لتحاول إحداث انعطافة في حياتنا، رغباتها الصريحة تتقافز بعدم اهتمام، ما جعلني أذرف الدمع.

حضر اليوم أخوها الأفَّاق حاملًا معه دناءة متناهية، فقد سحب أُذني بشكلٍ مؤلم لإيقاظي من النوم، المتشرِّد الماكر يوضح طريقة تصرُّفه المشابهة لمحاكاة غير مألوفة.

علاقتنا تتنافر الأمور الهامشية، تدفع الموقف نحو التأزم، أبلغتني بعد منتصف اللَّيل بعملها، مترجمة مع قوات الاحتلال أنها اقتراني الثاني بعد أمينة الصندوق.

أخضعتُ هيجاني عن قصد إلى قنواتٍ حسية؛ لتكوين مشاهد تختزل حقيقة متخيَّلة، دفعتُ إحباطي تحت رحمة التحفيز، والتأمل لمسارات عملية تشكّل اندماجًا يصل حد النضج التام، والسعي لتسلية النفس بما هو جديد من الأشياء.

لم أعد أشعر في النهاية بالحاجة للإدلاء بأي تعليق، فالعلاقة المتبادلة المتنوعة تثبت قوتها في الانعكاس المتبادل، حتى يوسع احتمالية الحصول على خاصية الإثارة.

الهواء البارد والمتعفن في المطبخ، يسهم في كآبتي المندمجة مع حلول الضيف الثقيل، في جميع الزوايا تشتد صور القتامة، تقطع كوامن متضمنة خيالات ساخرة لعوالم، تستبدل الفرص إزاء محنٍ تبرز في جذور مترسخة بأنماطٍ لا تخلو من الدعابة.

• • • •

حاصرتني كثافة الجدران، تسبح في دوافع دمي المخيفة، ووسيلتي للرؤية حدود ذاكرة، تنحسر عنها البراءة خارج زمن ملوَّن بلونٍ تتبخر فيه أطياف ضوئية، تمتد على حافة انهيارٍ يفضي إلى الخروج، فكرتُ:

ـ ينبغي أنْ لا أثير حماقة، تتنقل وسط جزر الفوضى العائمة حول دوار الغثيان الذي ينتابني.

أردتُ التعبير بلغة مسهبة عن معاناة تتفادى التكرار، جينات تشكّل وعيًا مبهمًا، يرفض الاعتراف بوصفة تميزني، وتجعلني لا أُغادر الصمت.

تبدُّل مفاجئ، ينصهر بمزيجٍ من العوز إلى الرقة، وصخب يغطي وجه أخطائي التي تكتسب رباطة جأش، تحدد عاطفة تجمعني بردة فعل آلية بعد أنْ فقدتُ قدرتي على الاختيار.

تخطيتُ فواصل لا تستثني سجل حياتي؛ لأني لا أتوقع حقيقة كاملة تحلّق على قمة الهلع الجاثم فوق نتوء غربة مصنوعة من تزمت علاقة، تشعرنا بأننا الشيئان الوحيدان المترابطان في ارتجاف الزلزال.

البقاء بين قبضة مشاعرنا المتسمة بالقوة والشفقة، نمتْ عواطف متدلية من فضاء المستحيل، نمارس هوانا دونما اعتبار للعوائق ومعايير تتظاهر بفوران الألفة، بشرة أوهامي تدرك قضية اختفائه، والخشية من نمطين مختلفين يتصدران مشاعري في آنٍ واحد.

تغلغل أفكاره في هلام ذاكرتي وصورته التي لا تفارقني، جزء

مظلم يشخص داخل طيات نفسي، يبقى معلقًا بقسوة بين وجيب صدري الذي لا يتوقف، وعقلي المصمم على أنه ميزان بين انشداد لماضٍ لا يكف عن التأرجح، وحاضر يحوي أُفق فضاءات تنذر بعواصف رعدية.

احتجتُ إليه، سامحتُ جميع أخطائه، أريد معه فهم المحيط الذي يحتشد برغبة مضنية لا تفني إحساسًا عميقًا، يمتنع عن مساومة فلك مدارات تبقيني تحت سطوة الدهشة، حاولتُ جاهدةً أنْ أُمرر الفرق بين الخيال الذي يستلبني، والصورة الجاثمة فوق أكتافي حتى لا أضطر إلى إطلاق صرخة أضمن فيها شعور عميق، يخبرني عدم الخضوع بسهولة؛ لأنه مازال موجودًا في مكانٍ ما.

أصبح وجوده داخلي عدوى، تجعلني أُعاني من ضربات الاستهجان التي ترتد إلى مأوى، يجعلني أحمل صوته في طيات هوس يألف الأسى؛ لأفهم كيف اختفى من حياتي..؟ وأحتفظ بتوددي الظاهر في الأجواء.

دخلتُ مكانًا يشبه بقعة منحدرة من صخور الخوف البارزة في أروقة الاستلاب، لم أعرف ماهي القضية..؟ شعور الألم والاضطهاد، يراود أعضائي العاجزة عن التقدُّم أو التراجع، والأرض تغور بعيدًا عن الأنظار، عرفتُ مشكلات مستعصية، حاولتُ التخلُّص منها، راقبتُ وجوهًا بانتْ عليها ملامح باهتة حصيلة إدراك رهيب، عجزتُ من التعامل معها بحذر.

المدير الجالس خلف المنضدة، يبدو غاضبًا، ويسرع في تقليب

الأوراق التي أمامه.. صمت مطبق، بوسعي تصوُّر كلاب تطاردني تنتشر في الغرفة المطبقة على أنفاسي، نتوء من مسافة تقبض على غضبٍ وإدانة متفجرة.
ألمحه ينقر بإصبعه الأسمر على الحافة نقرات مستمرة، أحس بجرحٍ مفاجئ يزحف بلزوجة قبيحة على روحي، التي تذعن بارتباكٍ لهذا الوحش القاسي.

اهتز فاصل مجعد من كراهية بذيئة، ترغب في أخذ زلتي التعيسة؛ لانتزاع الوجود المنفصل بحكمٍ مشوه، يتلّف خصوصية افتقاري لزوجي.

توقفتْ مظاهر الهرب؛ لتعطيني وقتًا يتلبس حالة تمتلئ بالضنك؛ لتبدو جريمتي شديدة البشاعة، وهسيس مشاعر غامضة تمهل تشبثي بالبراءة، وأتأكد بأنه نظام للأشياء الواهمة، إذ ثمَّة إذعان غريب ساعدني في رفع نفسي، والسير بخضوعٍ تام في هاوية الظلام.

ترعد داخلي سذاجة مصطنعة، حاولتُ ألَّا أفكر في شيءٍ، تأملتُ السواد الحالك، لكني لا أستطيع الانقطاع عن التفكير، فجأة شعرتُ بيدين كبيرتين تحجبان عيني، التفتُ فإذا برجل الأمن يلحقني إلى البيت.

صحبة غير ظريفة تفضي إلى علاقة متصلة، مشاهد تختنق في جوٍ مضطرب لا يسعفني بالاحتجاج، ما يخيفني انتفاخ بطني، وآثار الحمل التي بدتْ واضحة، لم أُبادر بتوضيح معاناتي أمام رزكار

ابن زوجي الكتوم، ما أكبر الشبه بينه وبين أبيه ما يجعلني أبذل جهدًا شاقًا؛ لأتخلص من نظراته.
ومضة طرف على جسدي المعالج بحزم الإسقاط، وارتياب يعلّل تناولي دواءً مسكنًا، أظل أتنفس ببطءٍ لكنَّ وجعي لم يختفِ.

تحاصرني صديقتي آمال بعاطفةٍ توحي إليّ بمعانٍ رقيقة، أُغمض عيني أتمدد على الفراش، الانتفاخ يختفي، ابن شريكتي يقف بالباب مشدوهًا، يرنُّ الهاتف أطلب منه إغلاقه.

استحال العناء إلى لامبالاة، تؤثث نوعًا من الغوص في كيفية اقتحام خسارة أسستْ علائم محاولات أبذلها دون طائل لوقف التماس الكدر.

حضرتْ أمي، شعرتُ بالارتياح لكني لم أتجرأ على البوح، وتحايلتُ على إخفاء الخطأ، خالجتني رعدة تحمل انفعالًا مصطنعًا؛ ليرتبط بجهدٍ كبيرٍ يقلّل استيائي.

دنوتُ من الرجل الذي سبب مأساتي، أومأتُ بحركة أفضتْ إلى انحراف، توثبي الطبيعي حين يخص تعابير تتيح لشعور احتمالات وجود بؤر، تطلق مظاهر، تسافر قسرًا في شهقات إذلالي.

البقاء على قيد الحياة حالة أحسبها بلا هدف، الأمور المختلفة تستنتج حاجزًا من الحزن والخوف، غدًا تبرح والدتي دون ضجة، وتعاود آمال بقاءها معي بعد انفصالها عن زوجها، نبقى نسرح في ذكرياتنا، نسترجع في سذاجة بدعة تميل إلى ترجيحٍ، يكتسي صورة وضعتها في سلوك زوجي الغائب.

يدهشني تيار مضبب، يتسع في فجوات فقدتْ جموحًا خفيًا، بعدها يأتيني شبح يقسِّم حياتي قسمين، خيبة تكتسب انحلالًا يتفوق على الاشمئزاز، واحتجاجًا يغلق اختيارًا مزعومًا لا تتضح علة تمرده.

يعميني ضوء باهر ينبعث من زاوية الغرفة، بعدها يثب قرصان متعب، نظراته اختصار لمهمة تنوء بالانحلال، أبتهل في سري، أسرف بالدعاء حتى أتخلص من الشبح الذي يبث زمنه في مفاصل زمني المتوقف، يحرك أوهامًا تتحلى بفضائل تبدو نقية، لكني أعترف لنفسي أنَّ في داخله احتقارًا يثير اشمئزازي، يحدثني عن الخضوع بأفكارٍ تضرب مدى عمق، يشبه السكينة حينما تنعكس في حجب تتأمل مزايا الاحتواء.

بعد ثلاثة أيام من هذه اللَّيلة ظهر لي بصورته الحقيقية قائلًا إنه لم يعثر على الخليفة.

في ذاك المساء كانتْ آلام الإجهاض تتمطى داخلي مثل لهبٍ مستعر، ما بين الوجع والخيالات الطافحة في ارتيابٍ يوشك خرق سكوني، مضى زمن مثقوب، يعارض سير سمائنا.

عالجتُ نفسي بالانزواء، أجلس عاريةً إلَّا من قلبٍ مفعم بهمٍّ شديدٍ، أبحث بلا احتمالٍ للأذى عن فرصة تزودني بشجاعة.

خالجني رنين، يسري في بدني كله، يجعلني أرتعد بينما الدمع يغمر عيني، ما من شك مذ فارقنا سردار لم أغمض جفوني بهدوءٍ مريح، كنتُ أشتاق إليه، تنهض داخلي خواطر لا حصر لها.

أضع يدي على ذراعه لوداعه، يقفز بيننا من جهة الهدايا المركونة

في الغرفة شبح يعوم في الهواء، يرسم بأصابعه رداءة لا معنى لها، تبتعد في رغباتي المكبوتة قسوة تتمرغ بالغيرة، تترك جذورًا، تخوض برعشة منتظمة، تخجل جسدي المسجى دون وعي.

يفتح أشداقه الضخمة، حوَّلتُ بصري عنه، شاهدتُ في ساعة متأخرة بيتي يختفي في أعماق فوانيس الشارع، تحيط به دوائر أقمار تتجول على طول التخوم المحيطة بالمدينة.

• • • •

وجع يتلوى في سقف مرثية تناور، إرث يحتطب نصب، أمكنة تنزوي شرانقها عند جفاف عيني المفقوءة من حسدٍ لم يتوقف.
شكّلتْ عندي انتكاسة، تمضي عبر فجوات عمري المبعثر، وأحلامي التي تعوي بلا أنفاسٍ ترتب عليها إنطفاء نظري من الجهة اليسرى.

غادرتُ إلى الأبد مناطق تحرك حواسي المضطربة مثل وخز دبابيس، حملتُ فظاظة مهملة في سلوكي، أحتمي به كمظلة تقيني عدوانية أحسبها تتدفق بنزوة، تقضم قهقهات تفترس شقوق نفسيتي المتعبة.

أصبح وجهي المفقوء بصمة تحدد للكثيرين موعدًا للنحس، جعلتني أكتشف كره الآخرين، وشفقتهم الذابلة في أصواتهم المنكسرة.
حاصرني هذا الكائن الهاطل فوق هضبة، تتكئ على سفوح نظرات المحيطين بي، كنتُ ألمح إشارات الازدراء تتقاطر خلفي تعبيرًا عن بغضٍ لا يمكن تفسيره سوى هذه العين المعطوبة، بقيتْ حسرة تزحف واهنة على رغبتي في الوجوه، التي تبتعد عني حين تراني عند الصباح، كنتُ مثل داءٍ دخل المدينة، أسمع دمدمة تلوك صفير التشاؤم، الجميع يتململ في استجابة تتظاهر بالسخط، وفي حدود التلاشي ألصق يدي على نصف وجهي المغلق، وأمضي في سبيلي.

أكثر مَنْ يراوغ حتى لا يقلقه منظر وجهي، زوجتي الأولى لم تكن فخورة بي حين تسحبني من يدي بتبرمٍ واضح، ويبقى الصمت الواهن، يتنقل بين حجرات الدار بهيئة دوائر، تنزلق في محاور

مصممة على تخفيف وطأة الصدمة حين يحتل غبارها جسدي.

أشم رائحة الحذر، فيطفح الدمع يبلّل خدي الأيمن، وأنساق بعدها للانزواء قرب باب الدار، أسمع صوت جارتنا تنادي ولدها الصغير، تسكت ويتبرعم داخلي وهن، يوقد عناصر تتحلّل إلى ألوان داكنة تصب في انغلاقاتٍ، تنطوي على صورٍ مرعبة.

يتقاسم تمازج غريب بين جرحٍ ينكفئ، وتطلع يرسم منعطفًا في محاولة استمراري بالتغلُّب على مأساتي، كان تعويضًا لا إراديًا عن خسارتي الجسدية والنفسية.

تحوُّر يطرأ داخلي بشكلٍ غريب، كنتُ أرى الوجوه تملؤها الأصباغ الفاقعة، وجوه متغضنة، وأخرى عابسة، وبعضها بلا ملامح محددة، يتبادلون السخرية بينهم، يتناولون الاتهامات المضحكة، سحن أخرى تحاول ترميم تقاطيعها الاستعراضية.
يلتهمني استغراق مضني في رصد الحركات المحيطة بي، لم يعد الآخرون يتشاءمون من رؤيتي.

كنتُ أشعر بحُمى تنتابني تدور في جسدي؛ لتستقر بعدها في فمي تحديدًا على سطح لساني الذي بدا سليطًا، أحسه يتحرك بين أسناني، ويتلمظ فوق شفتي؛ ليبدو وقحًا لا يمكن السيطرة عليه، حركاته الانفعالية تنبئ عن ألفاظٍ خشنة وجارحة، أحيانًا يكون مصدرًا لمشاجرة تنتهي بلكمة على عيني.

تتفاقم البشاعة، تطلق في الفضاء تلوثًا مخيفًا، تنتاب عيني السليمة ومضات تتحسس أعماق لطمه قاسية، تحمل وخز ظلام دامس عند

جارتها، تفصح عن سبة سوء تؤشر الفاصل بين العالمين أحدهما يجلب الدمار، والآخر يثير حزنًا يتفحم على أعتاب دوامة الانقضاض، تسحب وراءها رموز امتلاك لحظة الإمعان بالتهام مفاتن جارتي المغرية.

تميل صور البوح في التقاط المحاذير، حاولتُ أنْ أُقيم رابطًا بين ما أراه وما أسمعه، لكنَّ الغشاوة ترسم أُفقًا مشوشًا يسهم في ضبابية الصور المبثوثة حولي بأشكالٍ هندسية متباينة، لا تبعث على الطمأنينة، إنه انحسار يهدد بالانطفاء التام.

تتفاقم حالات الذهان من خلال ربط عشوائي، يتجاوز أُطر معتادة حتى يصبح زوج آمال صديقي المخلص، يحفظ لي كل التوقيتات، ويسحبني من يدي التي نسيتُ شكلها، يعيش معي بانقيادٍ يتحاشى الاصطدام.

لا أتجرأ على اختراق ظنوني؛ لأنها تحصي ضغط ضعفي المسترسل في جسدي الذي يمنحني اعتلال واضح، ينشيء ظاهرة تسحبني على عصا أتوكأ عليها، وأُحصي خطواتي المتعثرة على ترابٍ يجهض أملي في رؤية الضوء الذي أفتقده.

أرزح تحت وطأ العتمة التي تسلبني اختياراتي النهمة، تحيطني أسوار غير واضحة المعالم، لكني أظل أحنُّ لأيام عيني المسلوبة بؤبؤها.. فتدنو منِّي عينان مشدودتان إلى سماء تستيقظ بلا مطر، تعثرتْ بغبار الإثم المتشبث بالضوء الداخل من النافذة المحاطة بعلاماتٍ تتواصل بإيحاءٍ، يجوس في أعماق حيرتي الضامرة.

ـ اخفض صوتكَ.. بلا صياح.

ترسم الفتحات الصغيرة دوائر، تطفو فوق صوت حذاء يمرُّ بضجة، تتربص توهج ينمو في خريف يصاحبني؛ لأبدو مبلَّلًا بارتعاشٍ، لم يجرؤ على ملامسة نصف حلقة ملوثة باضطجاعٍ، يختزلني مثل جسرٍ حجري.

الناس يتحركون في موعدٍ، يعكس أضواء الغروب على الجدران الرابضة في محيط مشهد قوافل السيارات، والباصات المرتجة بحركاتٍ منفعلة.

نزلتُ باتجاه النهر محاطًا بالهواء، اجتزتُ أماكن تقبع وسط صراخٍ وضجيجٍ، يجري مع صخبٍ يتملَّص من تراشق إطلاق النار.

طار غراب، وهو يطلق نعيقًا قويًا، رحتُ أتسلل بين أشجارٍ نمتْ معزولة عن الجرف المتآكل، بقيتُ منتظرًا حتى هبط اللَّيل، تتدحرج فوق الأجمة لزوجة تكتسي لون وحشة مستبدة.

يتأرجح وعي أطياف أشياء قديمة، أتطلع إلى عالمٍ يرتجف بشوق، حين تلامسني يد مخلوق آخر، تنضج أحاسيس تتحرك داخلي مثل بذرة، وإذا بيد ضخمة تضربني في منتصف ظهري تحت لوح الكتفين، قال صوت أجش:
ـ ماذا تفعل هنا؟

جفلتْ، تعطلتْ حواسي، رذاذ لغط يمسح رأسي، سيقاني تخطو خطواتٍ مبعثرة، الهواء الحار يغطي جسدي المتكاثف في سيل الصدمة.

تجمعتْ في بؤرة الظن دهشة مريبة، وانغمس حظي العاثر في عوزٍ، يتجاهل ولعي للهروب ثانيةً من الأيادي الخشنة.
ارتجاف يحشو ندمي، وتهزأ بي وجوه، جف عن ملامحها الصحو، يزحف على ظهري غضب يمتطي تساؤل لا قرارة له.
ـ لماذا.. لماذا؟!

فكرتُ بالشمبانزي، صورته لا تفارقني، فلقد كنتُ أُعامل معاملة القرود.

موجات تسحب عتمة متحفزة تحاور شمس آفلة، الملم انفعالاتي أعود أمضغ حسًا مبهمًا حين أقترب من الحوض المليء بالأسماك، الذي بدا كأنه ثقب يحتوي ارتباكي، وينافق بوح شفتي التي أُحاول سد الجوع بها، وأنا أقذف البيض المسلوق باتجاه سطح الماء المضطرب.

تتقافز الأفواه المستديرة بأشكالٍ محيرة، ينصهر داخلي وجوم معفر بظلٍّ مرتبك، كل يومٍ تأتي الشاحنة السوداء تفرغ صناديق البيض؛ لأقوم بتقشيره، ورميه نحو خرافة تركد في أنفاق يرطبها البطر، فتذوب آهة ندتْ بحسرة مخنوقة تبعث أنينًا خفيًا يجعلني أصرخ:
ـ أحتاج زمنًا ينقع جوعي بماءٍ لا يستريح عند الأحواض السرية.

تهبط ظلمات متناثرة من كوة حائرة، تسبق رائحة الخوف المنخور في حطام، يمسح أصص الورد الممتد في الأرجاء، يحرسها رجال أشداء.

ثمَّة مَنْ يسخر منِّي حين تحويني الغرفة الضيقة؛ لأبدو مثل المجانين، بعضهم يحمل سجلات يحصي بها أنفاسي، وآخر يحسب قطرات العرق المتكاثفة على زجاج نظراتي السميكة بسخرية، تستنشق رغبتي الصريحة بالبكاء.

الزمن يحبو خلف سحنتي البلهاء، أفتقد طعم أشياء كثيرة، ينوء صمت النهار في انطفاء اللَّيل، سكون عنيد يمرغ عطب السكوت، يستفز عمودي الفقري صراخ ينمو في أعماقي، ينفجر في ارتعاش، يفتش عن طريقٍ، يشج عري الكتمان.

أسمع من بعيد صوت مؤذن، تنشطر شهقة، تنمُّ عن نتوءٍ غامض، يطفو مثل فقاعاتٍ تتحسس قلقي المتضاعف بانكماشٍ، يترجل منه الرعب، يرتجف بانحناءٍ زاحف، يمتزج مع الأضواء المتلألئة على سطح الأحواض اللعينة.

دخان أبيض يتصاعد أمام عدسات النظارة، يغلق حواسي لم يبقَ سوى فمي المفتوح مرتعًا للذباب، صوتي الملهوف يمور مع أصوات حركة الأسماك النشيطة.
ومضة تبدد التوحش، تتوالى جينات الوهم، تتأملني بغرابة متفردة، تعجز عن تحمل جمال المكان ورهبته.

عند الأُفق تذبل ثمرة الشمس، فينسكب سائل معتم، يغطي السماء بهدوءٍ يشبه الحفيف، فيعتريني الخور، أسحب أقدامي المتيبسة من ثقل جسدي المتكور على فجوات رغبتي العارمة في النفاذ.

وعبر سنوات لا تعد ولا تحصى، تغفو طقوس شكَّلتْ مسافة تبتعد،

وتقترب من حافات لا حدود لها، رهبة تنتصب في الحوش تحت سماءٍ واسعة.

بعد مسارٍ طويل، تلبسني إحساس مبهم، وتعابير مشوهة تبعث على الحزن، غطستْ في سحنتي البلهاء علامات تند عن سيماء غريبة تحاور ضعفي، قبل أنْ تحل فجيعتي الأخيرة، كنتُ أفكر بأنَّ عليّ نذر، فأقوم بنذر شموع أوقدها على خشبةٍ صغيرة أمام أكتاف (الكرب) الخشنة.

شعرتُ أنَّ أصابع قدمي باردة ويابسة، كنتُ محتاجًا لمزيدٍ من الهواء، قلبي يخفق بشدة، والتعب الشديد يتمرى في جسدي الناحل رغم كل شيءٍ، كنتُ أستمع لما يقول:
- كلما أمرُّ أرى في عينيكَ تعبيرًا للطاعة.

الراية الخضراء الموضوعة على الجدار العالي، ترفرف في الريح، عكستْ أطيافًا شبحية، داهمني دوار، اعتاد أحدهم في التحدُّث معي عن ضرورة الهجرة.

تتكدس حزم الضوء بارتخاءٍ على الجدار المقابل؛ لتكشف حلقة متصلة فوق الظل المرسوم بشكل لوح رمادي، يشمخ فوق تراب ندي، يميل إلى اللون البني.

مذ اشتداد معاناتي، الفراغ جعلني أتحول إلى سحابات دخان أبيض، فينتابني شعور بالبرد، وأتكوم جوار نخلة، تتسلّق أعشاب أصابعي المرتجفة على فتات الحجارة المرصوفة حول الغرف الرابضة بهدوءٍ غير معهود؛ ليضيق الممر بعد المنعطف عند الزاوية

البعيدة، وينفتح الفضاء على الدرج الوحيد حيث تنمو في أحشائه بصمات أقدامنا المنهكة.

قد يكون كِبر سني حد من البصر، لكني كنتُ متأكدًا أنَّ النخلة مازالتْ موجودة، حيث زرعتها قبل أربعين عامًا، حملتها داخلي مثل مشكاةٍ لا تعرف الإعياء.

ربما دمي لا يسري في عروقي بصورة صحيحة، لكنَّ اللَّيلة حينما غادرني الجميع بعد أنْ أصروا على ضرورة إيجاد حل، كانوا يحتجزون داخلي إنحيازًا، يدور في رهاب أماكن ضيقة لا تتغير، طلبتُ منهم تركي وحيدًا.

تمددتُ قرب الجذع، حركتُ المسبحة بسبابتي، أعواد السعف الملقاة بإهمالٍ، الصمت مطبق، الريح تصفر بين الحين والآخر، العتمة تزحف ببطءٍ، تبلّل الغرف المزوية بوحشة مفجعة.

يختفي جزء من وجهي القاسي تحت ظل قشعريرة، تستدير مع نظراتي الحائرة، تدرجات لونية أكثر قتامة تصل ساق النخلة تدفعها هبة ريح.

سمعتُ صريرًا، يأتي حاملًا حكايات قديمة، تنضح صور الماضين، تجيء وتذهب منزلقة عني مثل حلمٍ يتكرر بارتخاءٍ، يضفي تزجج على جبيني المربوط باليشماغ.

انفجر صوت مستمر، طقطقة تسحبني نحو مستنقع الذعر، النخلة تستغيث كما لو أنَّ أشباحًا تطارد بقائي والمكوث بأمان.

حملقتُ بصمتٍ مترفٍ، خفقة تضغط على هضبة روحي، تغرز في رأسي أكوامًا من علامات الاستفهام، حاولتُ الصراخ:

ـ كيف يتركونني وحيدًا..؟!

عيون ملونة ما انفكتْ تطالعني، تستمع إلى الأصوات الآتية من جوف الجذع، البيت لم يكن سوى جدران فارغة، وأبواب صدئة مغلقة بالمزاليج.

شققتُ طريقي ماشيًا فوق الطابوق المرصوف، أمشي والهمهمات تجلجل، فكرتُ بالعدو لكنها كانتْ تقتفي أثري، انتابني شعور سيئ، شعرتُ كأني سأموت، تنفستُ بصعوبة، أغمضتُ عيني، عدتُ، سمعتُ تدفقًا من كلماتٍ مبهمة، عضلات ساقي خائرة، حدقتْ بي عينان مفتوحتان على سعتهما، شبكتُ أصابعي فوق رأسي، ابتلعتُ الهواء بصعوبة، نظرتُ إلى لمعان سيوف قديمة تبرق في وجهي، التفتُ حولي، مشيتُ مبتعدًا، طويتُ ذراعي فوق جمجمتي كأنَّ ذلك يحميني.

ثمَّة صرخات تشتبك مع صدى تنفسي، تتداخل النغمات، عتمة الغبش توحي أنه لا نهاية للغرف، فراغ ممسوخ، فناء البيت ينبض بالاستيقاظ المبكر.

النخلة ترتجف، صوت الآذان يصدح، هدوء عميق يتردد في اختيار مهمل، ضجتْ الغرف بغبارٍ متعكر، تهاوتْ أوراق السعف، انحنى الجذع، كان وشيك الوقوع، ثم هوى عبر صوت يذيب تبلُّد أحاسيسي.

ارتمتْ أعذاق التمر، التي لم تنضج بلونها المخضر متناثرة في الموضع المعتم، تحسستُ وخز الجريد يلسع عضلاتي الواهنة.

يتأرجح باب مفتوح على سعته، صدر بعدها صوت ثقيل مكتوم، يضرب الأرضية، اصطدمتْ كتفاي بجدارٍ، جفلتْ، تلاشتْ جثتي تحت وطء اصطفاق باب يغلّق، وشعاع ضوء يغطي وجهي المدمى، هدأتْ نبضاتي، وأغلقتُ عيني.

فرقعة وضجيج يتركان آثارهما على الشكل الهائل المنتصب أمامي، أراه يقرأ علامات تخطف رموزًا، توحي بضعفي المستمر وجبروته، تأرجح الباب المفتوح على سعته، خطا خطوات إلى الأمام، وعلى الفور انطفأتْ الأضواء.

اصطفق الباب، سمعتُ صوتًا يأتي من الظلام، حدقتُ بعينين شبه مغمضتين، كان شبح يحجز الضوء عني، تشوش ذهني، لف ذراعيه حول صدره، وسألني:

ـ متى أتيتَ من هناك؟

جحيم يوخزني وخزًا خفيفًا.. لم أقل شيئًا، حاولتُ دفعه بشدة أو أنتزع سلاحه، لكنَّ هناك ثمَّة ما يغريني بقتاله، لكنه يستطيع قتلي بسهولة، أطبقتُ قبضتي بصلابة شديدة، فمزقتُ سترته البالية، أغمضتُ عيني لحظة، سمعتُ تدفقًا من كلماتٍ لا أفهمها خارجةً من لا مكان.

تحسس الفقرة الأخيرة من رقبتي، نشر بإبهامه سخونة تكتنفها حرارة لا تتناسب مع مهام لم تعد مقتصرة على طوقٍ، يدور في

اتجاهات مسطحة ودائرية، شعرتُ بأنَّ جلدي ثقيل، وفقداني معالم الطول والعرض.

انطوتْ داخلي مفارقات عجيبة تتشابك فيها عناصر متناقضة، وادعاءات تواصل استنساخ متواصل، حملني بين إصبعيه وحشرني في نتوءٍ، يعتمد التعارض بين خاصرتي، وجانب من ظهري المطلّي بألوان براقة.

يستيقظ في جوفي تعبير مبهم يشبه الحلم، يقربني من شكوكٍ متجذرة في واقعٍ يهتز، فيكشف هراءً، يرسم صورًا تتخيل الواقع.

بعدها يطل موقف، يشق حدود نزعة محنطة بصورٍ ثابتة ومتحركة، تتحول نحو صياغات محاطة بأُطر متشنجة؛ لتحرك مساحة رغبتي المستعرة حتى إنه لا يمكن إقصاؤها أو تهميشها؛ لأنها عملية تتكون من صورٍ حسية تتفاعل بحرصٍ شديدٍ للإتيان بأعمالٍ مشينة، تفضح عروق الصمت، وتغتال أسطورة الكبت المتراكم فوق حواسي المشيَّدة على خصوبة جذر يهمي إشارات مغلقة.

يطلق زفيره الحار، حرَّك يده اليمنى، توقف قليلًا محاولًا إخراجي من المكان الذي وضعني فيه، فهمتُ أنه يبحث عن نزوة، انتقلتْ أصابعه النحيفة؛ لتضغط تحت سرتي، شعرتُ بعدها بسخونة مربكة، كانتْ محكومة بمنظوماتٍ شديدة الحساسية، تتهيأ خلالها أصابع لضوءٍ مبتسر مع انتشارٍ في حفرٍ مضطربة، تخرج إلى السطح تأوهات.

تحملتُ عبء تعسفه ضمن بلورة حكاية، تجدد معاييرها الصارمة هوة من تيارات متعاكسة؛ لتفضح أُفق صور إباحية تستنبط خلفيات تعلوها طباع منفرة، بعدها تشققتْ سلطة الرفض؛ لتعلن فشل ذرة نابعة من ارتباطاته الروحية، فكف عن الحراك.

مارستُ اجترار زحزحة تتعارض مع تلك النظرة، التي أختلسها من اللقطة المثيرة حين أنكفء نحو الجذوة بملامح تمارس نمطية افتراضات موجعة، تفصل بين محورين أولهما طارئ يجعله كئيبًا، والآخر تجسيد حاجة تتبعه بلا نفور، وهذا أقصى ما يحتاج إليه.

تتوقف حركة دوراني الموجعة، تغزو النتوء الذي أرقد فيه، عتمة تتبخر بين مساماتها حرارة، تنفذ عبر مراوح لم تتوقف، لكنَّ مسارات تصوراتي المضمرة ظلَّتْ مشتغلة.

أردتُ العودة إلى الركيزة الأولى المتقدة في ذهن الرجل، غير أنَّ أجزاء جسدي بدتْ معطلة مثل نواة ميتة، تنتظر ضوءًا ضئيلًا يحرك مشغلها الذي جف ولا يقاوم الإغلاق.

نهض من كرسيه، وليس في وجهه تعبيرًا محددًا، شعرتُ بأنَّ تجلياته فيها متغيرات، زمن مضى، وعادات منقرضة، وأمزجة مفطورة على الهشاشة، فيما كنتُ انعكاسًا لتقاليد متحضرة، ودربًا من دروب الخيال، أمتطي فرسًا، ملك مضطرب لا تسعه الجهات، فمازال يبحث عن صديقٍ قديمٍ، تختفي في طيات ثيابه رائحة التاريخ، لم أملك شخصية مميزة، ولا معالم واضحة، لقد شكَّلتُ ظاهرة منفصلة، تزرع إشكاليات تغفل خلط اختراقات مباحة وغير

مباحة، شعور من مزيجٍ لا يكتفي بالذوبان.

لا أعرف متى تستيقظ سيرة تشيع معطيات، تشقق طارئ يتكرر ويستدرجني نحو ظنونٍ مستبدة، تقودني خارج محيطٍ، يقتفي مسار جلجلة تغيِّر حداد الرجل المكتئب، الذي يحاول ترويضي ضمن نسق الاستفراغ، فلا أحتمل المواجهة لذا تظهر في وجهي خطوطًا متلاشية تؤكد حقيقة اعتراضي.

يبدو نحن في مواجهة عقيمة، تحوي نزقي واستبداده الذي يحمل اضطرارًا، يتكرس لاستجابة تنتظر خريطة، تنفصل من علاقة متردية.

كنتُ ألاحظه، وهو يتكلم مع صديقته، وقد تدلتْ سيقانهما بإهمالٍ :

ـ ذهبتُ اليوم إلى المصرف.

ـ هل أردتَ سحب نقودٍ..؟

صمت ملقيًا رأسه على كتفها، بين أنْ أحلم وأقص الحلم، تتناحر مسافات عليها الرضوخ لمنطق المتلقي، حاولتُ إيجاد طابع يدلني على صورة معينة تحسم معانٍ محظورة، ربما تقودني إلى انتظار إشارات باهتة لرصد استغاثة تأويلات، تأبى التخلّي عن التمييز؛ لتتعرف على ملامح الوهم.

قد يكون الخرف في تجاويف رأسي، يشكّل اضطرابًا يخفق مع سيلٍ، يحرج انعدام المشاعر الشائبة، ويستنكر أبعاد حقيقة تشترط صدقها من قول ما أراه.

كنتُ أحسبها مجرد شرنقة، تنسج مصدات كابوس، يعتريني بزخم، يوقد انتظار متمهل، يرهبني خلسة، فخ يبحث عن رابطٍ، ينهار تحته ترددات، صوت لا يكف عن سبر ارتياب نبأ لا يستقر.

أرختْ سخريتي مفاصلها، وتشبث ريقي المتيبس بشكٍ، ينهمر من قدرتي التي تفصح عن تفتت فواصل خجولة، تتنقل عبر ثرثرة تكسب خطيئة.

راودتني أفكار تأسيس لحظة مفعمة في سرد تفاصيل حركة الشفاه؛ لتبوح أسرار فكتْ شفراتها؛ لتنمو بانزلاقٍ معبأ بتحذيرات تدق معلنةً انحسار الوقت.

ينهش الاستعجال شعور يمازح إطلالة غريبة، تعالج صدفة، تتجاهل لوثة حماقة تتكرر بلا توقف.

يأتيني شارلمان مرتديًا لباسنا التقليدي، بيشماغه المرقط المربوط فوق رأسه بعناية فائقة، وقف ينتظر الحافلة ممتعضًا، يفرك يديه بنفاذ صبر باديًا على محياه، تقدمتُ صوبه، أفزعني صراخ صبية، يحملون حقائبهم على ظهورهم، يتناقشون حول الدوري الأسباني بحرقة، وزعيق يفصح عن غلاظة تفيض خشونة، عبارات بذيئة.

تهدأ عبارات المجاملة هاربة خلف تراب الشارع الغارق بالحفر، يتنكر ارتياب مفرط، يمارس عزل مشاعري المكتظة داخلي بترتيبٍ متحير، الباص المتهادي لا يتنازل عن ملاحقة الركاب المتوقفين تحت عري الشمس العائمة في صباحٍ، يفرز افتراش الأجساد لمساحات مطوية بأنفاسٍ تتمتم عباراتٍ مقدسة، ورغباتهم

النافرة بالحصول على رزق لا يفلت من أيديهم.

بقيتْ خواطري تحصي زخات كلمات، ما فتأت تسحق نظام يرافق صبري المسجون معي في مقعد السيارة، التي تطلق منبهها في وجه كائنات الزحام.

ترجل شارلمان، تنفستُ الصعداء، لكنَّ إشارات تفتح عوالم حواسي، تفتح مقاييس، تحتوي أمرًا لا يقبل المناقشة، ويتمعن بمواكب امتلاك معاناة لا تنتهي بسهولة.

تناحرتْ اليوم ساعات الدوام الطويلة، فقد جاء الموظف الذي يشاطرني الغرفة حزينًا؛ لأنه اكتشف أنَّ أُمه أقامتْ علاقة جنسية مع الضيف الذي تجاوز الأربعين، والمقيم معهم منذ أسبوعٍ، كان يدعي أنه صديق والده المقيم في ليبيا.

أدق بيدي على مفاصلي الموجوعة حين عدتُ سيرًا من الساحة الواسعة، التي تنتصب وسطها ساعة جدارية كبيرة متكئة على معالم بناية قديمة الطراز، تحيط بها من ثلاث جهات بنايات مرتفعة، عند الجانب الشرقي ينغرز المزار بقبته الزرقاء، تسوره كتل الكونكريت، صورة تشبه ذكريات تحتفظ داخلها، استرخاء يستقر مع مجرى الهواء المتنقل من أعالي العمارة المطلية بلونٍ، تبني نحو سفوح ملامح السحن الغاطسة بصياح الباعة الخافت في مثل هذه الظهيرة.

تبدلتْ الصورة، كان ثمَّة أُناس يتصارخون بعويلٍ مفجع، وهم يمرون بساحبة زراعية تستخدم لنقل القمامة، أحسستُ أنَّ أعضائي

تسيل على الرصيف، وتباغتني بحة تتصل بتلاصقٍ، يحرك حواسي الخامدة، رجفة تلمس رغبتي الحسية، إنها امرأة سمراء تطلب منِّي الاقتراب منها، قد تكون آمال لكنها تحمل نفس الملامح، قد تكون هي.

شاكستُ رغبتي، هربتُ داخل الباص ذي الطابقين بلونه الأحمر، أعتصر انزلاقات سخطي المتبدد لعدم قدرتي تجاوز محنة التردد.

مذاق العودة متأخرًا إلى البيت يشعرني بالغثيان، بقيتُ ممددًا على فراشي بملابسي الداخلية، أراقب هبوط غيمة النُّعاس بخدرٍ، تقترب منِّي فقاعة قلق مبهم، خيال يراوغ التماع، نور يأتيني، صوت يشبه غمامة، تكرر حروف الشهادة لا يجب إهمالها، ترنُّ كدقات لا يخبو إيقاعها، فهي تفترس اهتمامي بهدوءٍ، يأتي شارلمان حاملًا سيفه اللامع لم تكن لديه رغبة في محاورتي.

في صباح يوم الجمعة، وقفتُ أمام باب دارنا، أنتظر مجيئه، حضر حاسر الرأس، توقعتُ منه أنْ يقول شيئًا، لكنه بقي منقبضًا في ظل عزلة لم أستطع الوصول إليها، انتفختْ داخلي حكاية موته.

حملتْ ضجيج شروده محاولًا الاستناد على الحائط بطابوقه النافر مثل قبضة طين جاف، أردتُ التحدُّث سبقني بالكلام:

ـ أعرف ما ستقول.

تجنبتُ فتح موضوع الرحيل، ورحتُ أسرد له معاناة زميلي في العمل، لكنه فاجأني بقوله:

ـ لا رغبة لدي بالبقاء.

ضغط الهواء على صدغي، فأبعد عني حاجز اصطفاق نقطة حذرة، تسقط على رأسينا المتعثرتين بدواعي، تخلع إغراءات ترتد في اختلاس الأفكار المتطايرة.

راودتني خفقة مشاعر مستلبة، قصصتُ عليه حلمي الذي ما انفك يراودني، سمعتُ نشيجه، حاول أنْ يشكك في عناصر الرؤيا لكني جزمتُ له بحقيقة ما يسمعه، كثر بكاؤه وراح يندب أيامه، دخل بعد أنْ أغلق الباب بعناية، بعدها سمعتُ نواح يأتي من داخل الدار، أدركتُ أني أخطأتُ، خمنتُ أنه سينتظر انقضاء هذه اللّيلة؛ ليتأكد ما قلته له، ترك الجدار أثره على قفاي، انهارتْ هواجس تسحب الهواء من رئتي، شعرتُ بالاختناق، سرتْ تجوس مفاصلي رعشة تلاحق ميلي الفطري للثرثرة.

عند الصباح، تمَّ تشييعه وفي الطريق إلى العمل، استوقفني رجل أشقر الشعر بعينيه الملوَّنتين ومعه شخصان، اتهمني باغتصابه، مزق تبدد صورة زميلي الموظف، الذي حضر لزيارتي في الموقف، ابتهاجه الفج فقد علِّم أنَّ والدته حامل في الشهر الثالث.

أخيرًا توصلتُ إلى فكرة، طمستْ آثار أحلامي التي كانتْ حافزًا للإثارة التي أودعتني أسير انعكاس متباين، يتغلغل في وساوس تقضم اهتزازات، رافقتْ ليالٍ تخلع تلاشي خطوات متعثرة، وترَّنح يرمق مراوغة نداء يتلذذ بإدانة مخاوف مشروعة، لكنْ لا يمكنني الرجوع؛ لأنه لا توجد شجرة بانتظاري.

• • • •



المؤلف في سطور

- **صالح جبار خلفاوي**
- **قاص وروائي عراقي من** مواليد بغداد، **عام ١٩٥٤م.**
- **عضو اتحاد الأدباء في العراق.**
- رائد القصة التفاعلية، وقد ذكره الروائي المصري سيد نجم بكتابه **الابداع الرقمي باعتباره أ**حد رواد هذا المجال في الوطن العربي.
- **صدر** له:
  - **سأمضي:** رواية. **٢٠٠٤م**
  - صلاة الليل : **مجموعة قصصية. ٢٠٠٥م.**
  - همس الدراويش : **مجموعة قصصية. ٢٠٠٨م.**
  - **مواسم الخروج : ٢٠١٠م**
  - تـومـا هـوك: رواية.**شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٤م**



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net